بسم الله الرحمن الرحيم

العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالتهما على مفهوم مجتمع المعرفة

(بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم- 2014م)

ملخص البحث

يبدأ البحث باستنباط أصول الاجتماع الإنساني من القرآن الكريم حيث يتبين أنه ينشأ من التفاعل الدائم بين متغيرات سبعة، هي: "الإيمان بالله تعالى"؛ "المتاع الدنيوي"؛ "النفس"؛ "العلم"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون". ينشأ عن هذا التفاعل الاجتماعي العظيم نظامان متمايزان للاجتماع الإنساني، لا ثالث لهما، هما "نظام الاجتماع الدنيوي" و"نظام الاجتماع التوحيدي"، ويتمظهران عبر التاريخ في صور اجتماعية شتّى. يدّعي البحث أن النظام الرأسمالي الغربي هو التمظهر التاريخي الأتم حتى الآن لنظام الاجتماع الدنيوي، كما أن الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التمظهر التاريخي الأتم لنظام الاجتماع التوحيدي.

العلم والمعرفة مفهومان مختلفان في القرآن الكريم، فالأول جوهر مستقل عن الإنسان، وهو دليل الإنسان إلى الحق السرمدي المطلق(الله تعالى)، ودليله إلى الحق المقيّد المتحيز في الزمان والمكان(العالمين). أما المعرفة فهي ليست جوهرا بل هي العملية الإدراكية الذاتية الحسيّة الأساسية للإنسان التي على أساسها يتم الفعل والاتصال الاجتماعي.

"مجتمع المعرفة" هو مصطلح تم صكّه ليعبّر عن التمظهرات الاجتماعية التي صار يتصف بها نظام الاجتماع الدنيوي الغربي منذ أواخر القرن العشرين، وأحيانا ليعبّر عن أشواقٍ لمجتمع إنساني مثالي يسمح به المستوى الذي وصلت إليه تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والتراكم المتسارع للمعلومات وللعلم بظاهر الحياة الدنيا.

تبين الأصول النظرية للاجتماع الإنساني المستنبطة من القرآن الكريم أن العلم في مجتمع المعرفة الدنيوي يدور، كغيره من أوجه النشاط الإنساني، حول نواة النظام، وهي "المتاع الدنيوي"، وأن كل أنواع العلم والمعلومات وتقنيتها توظّف، على مستوى الأفراد والمجتمع، من أجل تعظيم هذا "المتاع" الثاوي في زينة الحياة الدنيا(المال والبنون). لذلك سوف يظل التوظيف الأساسي للتكنولوجيا المتقدمة في مجال المعلومات والاتصال هو إيصال رسالة "الشهوة الدنيوية" إلى كل أفراد المجتمع بلغة الصورة والصوت البليغة، وسوف يكون السعي حثيثا لتعميم هذه الرسالة لكل الناس في كل الأرض عبر آليات العولمة. وهذا يعني أن الحلم بمجتمع المعرفة المثالي لا سبيل إليه في إطار نظام الاجتماع الدنيوي، مهما تعددت تمظهراته، وأن السبيل إليه يقتضي التأسيس على نظام الاجتماع التوحيدي الذي يكون العلم فيه قائدا لا تابعا، العلم الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب والعمل الصالح في الأرض.

1- رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني(خطة الخلق العامة)[1]

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام مما أدى إلى خروجه وزوجه من الجنة ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعا إلى الأرض، بعضهم لبعض عدو. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **لخطة الخلق العامة** على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **لخطة الخلق العامة** هذه، وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن للعالم هو مبدأ التوحيد: (قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤)(الإخلاص). فالله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيئ إلا يسبح بحمده؛ وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيئ حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد

---

[1] التعريف العلمي ل"رؤية العالم" يقول إنها: "مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة". والتعريف الديني لها يقول إنها: "التزام، توجهات أساسية للقلب، يمكن التعبير عنها في شكل قصّة أو في شكل افتراضات قبلية(افتراضات قد تكون صحيحة كلياً أو جزئيا، أو كاذبة تماماً)، نحملها (في الوعي أو اللاوعي، في اتساق أو في غير اتساق)، عما تتكوّن منه الحقيقة الجوهرية للواقع، وتؤسس للطريقة التي بها نحيا ونتحرك ونحقق ذاتيتنا".

بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة فقال: (ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾)(الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية(خطة الخلق العامة) على النحو الآتي: المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية المعبّرة عن حقيقة الحياة البشرية على هذه الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(البقرة:36)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)(الأعراف:25).

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه على الأرض: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الإسراء:70)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستخْلِف"الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾)(الحجرات)؛ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا

وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾)(النساء).

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:61).

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الملك:2)؛ (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾)(هود). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها.

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الكهف:7).

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما "**المال**"(موارد معدنية، زراعية، حيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان) و"**البنون**"(علاقة جنس بين ذكر وأنثى تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46).

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و "البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(آل عمران:14).

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في هذه الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(الإنسان:3)؛ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)(الزمر:7).

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى

في النفس البشرية من دوافع الفجور والتقوى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:78)؛ (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق: 5)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(10))(الشمس:7-10)؛ ثم منح الله الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بأخلاق التقوى الموجبة(الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق..إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بأخلاق الفجور السالبة(الشح، البخل، الكبر، الحسد..إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:29).

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر، هي علم وإيمان وعمل صالح: **علم** بالمنعم(الله تعالى)، و**علم** بالمنعم عليه(الإنسان)، و**علم** بالنعمة(المال،البنون) والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه. **إيمان** بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. **العمل الصالح** الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي النفسي: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)(لقمان:34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المادي الممتزج بالجسد المادي كما في قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر:42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46) وهي علاقة (رجل– امرأة – أبناء – أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)(النحل:72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)(الصافات:149).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تجليات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾)(الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾)(آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم المشرب، والعري الناجم عن عدم الملبس، والإضحاء الناجم عن عدم المسكن، والعنت الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول

جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و "المال" و"البنون" من الأصول الكليّة لمقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، الصبر، العدل، الإحسان، السخاء..إلخ هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1/ "العلم بظاهر الحياة الدنيا" وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم(السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة.

2/ "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم الخبر" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وأخلاق التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وأخلاق الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسئول عن نشأة المجتمعات وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت أدت إلى تغشّي الرجل للمرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة.

ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو"الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزين لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى عقد اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و "لا تفعل"، وذات علاقة

مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ (مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾)(النساء). ولكن الدوافع السالبة التي أودعها الله في النفس البشرية، والتي تتعلق بها أخلاق الفجور (الكبر، الشح، البخل، الطمع، الحسد..إلخ)، هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)(هود:87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)(الأعلى:16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)(الأنعام:32)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)(الشورى:20).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(المؤمنون:37)، أو قال: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(صّ:16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20).

أما من قال: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(البقرة:201)؛ أو قال: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:39)، فقد بنى

حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:21)؛ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص:60-61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شئ حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تجلياته في السلم. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ الإيمان والعمل الصالح: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر:1-3)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)(الإسراء:33)؛ و"البنين": (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)(الأسراء31-32)؛ و"المال": (وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾)(البقرة)؛ و"العلم": (وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾)(الإسراء:36).

إن العلاقة بين "الأيمان" من جهة وبين "النفس"، "العلم"، "المال" و"البنون" من جهة أخري هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل الإيمان بوجهيه، العقدي(التوحيد) والعملي(الشكر). ولا يمكن حفظ الإيمان إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد على الدوام إلا بحفظ الإيمان

ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)(الأنعام،153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية (عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من أخلاق التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع الفجور، وتمكيناً "للعلم" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولى الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود "الله تعالى" أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف "الله تعالى" من قبل المستخْلَف "الإنسان" فيما استخلف فيه "الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية- بمعناها القرآني لا الاصطلاحي- هى الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هى أصول الاجتماع الإنساني(الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في التعامل مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلّا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توصف السياسات العلاجية المناسبة.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من رؤية العالم الدنيوية، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الانساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل رقم(1)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، في إطار النموذج التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار النموذج الدنيوي.

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، رؤية العالم التوحيدية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يمين الرسم، ورؤية العالم الدنيوية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. الشكل رقم(2) يجسّم الرؤية التوحيدية، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراتها في إطار نظامها الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم(3) الرؤية الدنيوية.

ومن معطيات الرؤية التوحيدية تأتي الأحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات الرؤيتين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على النفس البشرية، بما في ذلك نفس المسلم.

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل "الإيمان" متغيرها التابع، ومتغيرات "النفس المطمئنة"؛ "العلم التوحيدي"؛ "المال"؛ "البنون"؛ متغيراتها المستقلة؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضا.

الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العرى، الإضحاء، العنت) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية(دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهى أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في تعظيم متاع الحياة الدنيا ويوظف أكثر الوسائل فعالية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني.

شكل رقم (1)

نظام معرفي قرآني للاجتماع الإنساني

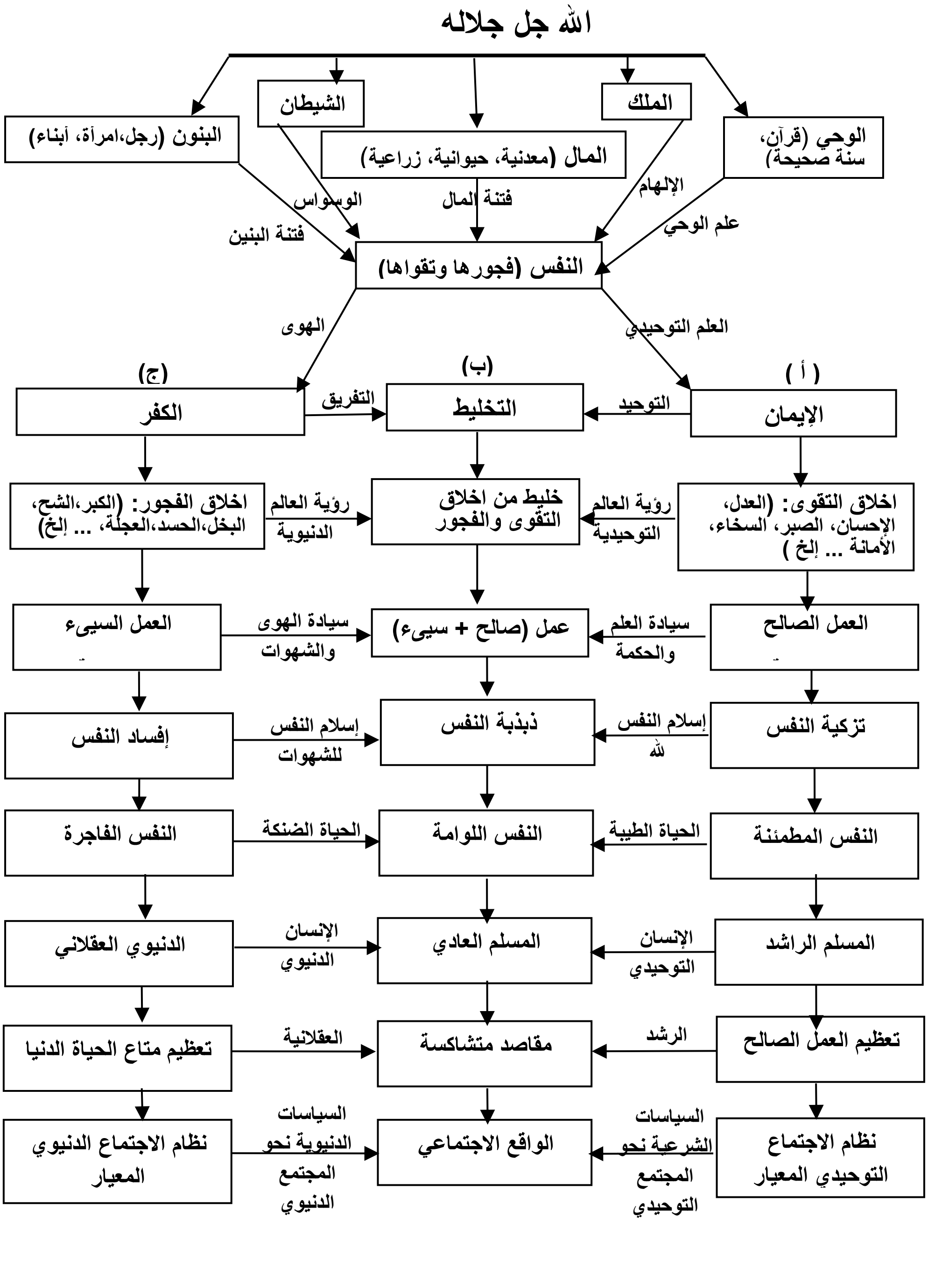

شكل رقم (2)

نظام الاجتماع التوحيدي

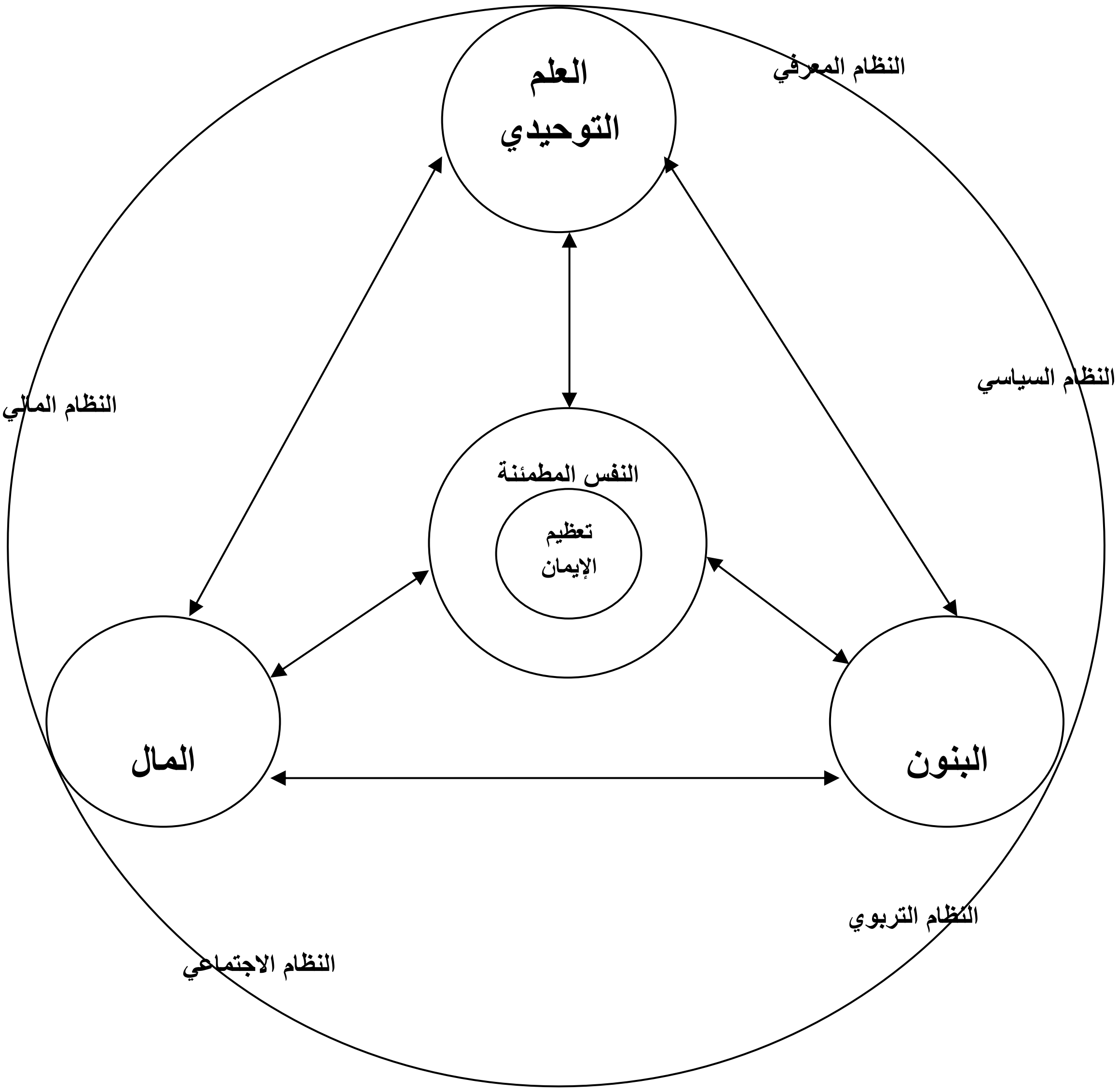

شكل رقم (3)

نظام الاجتماع الدنيوي

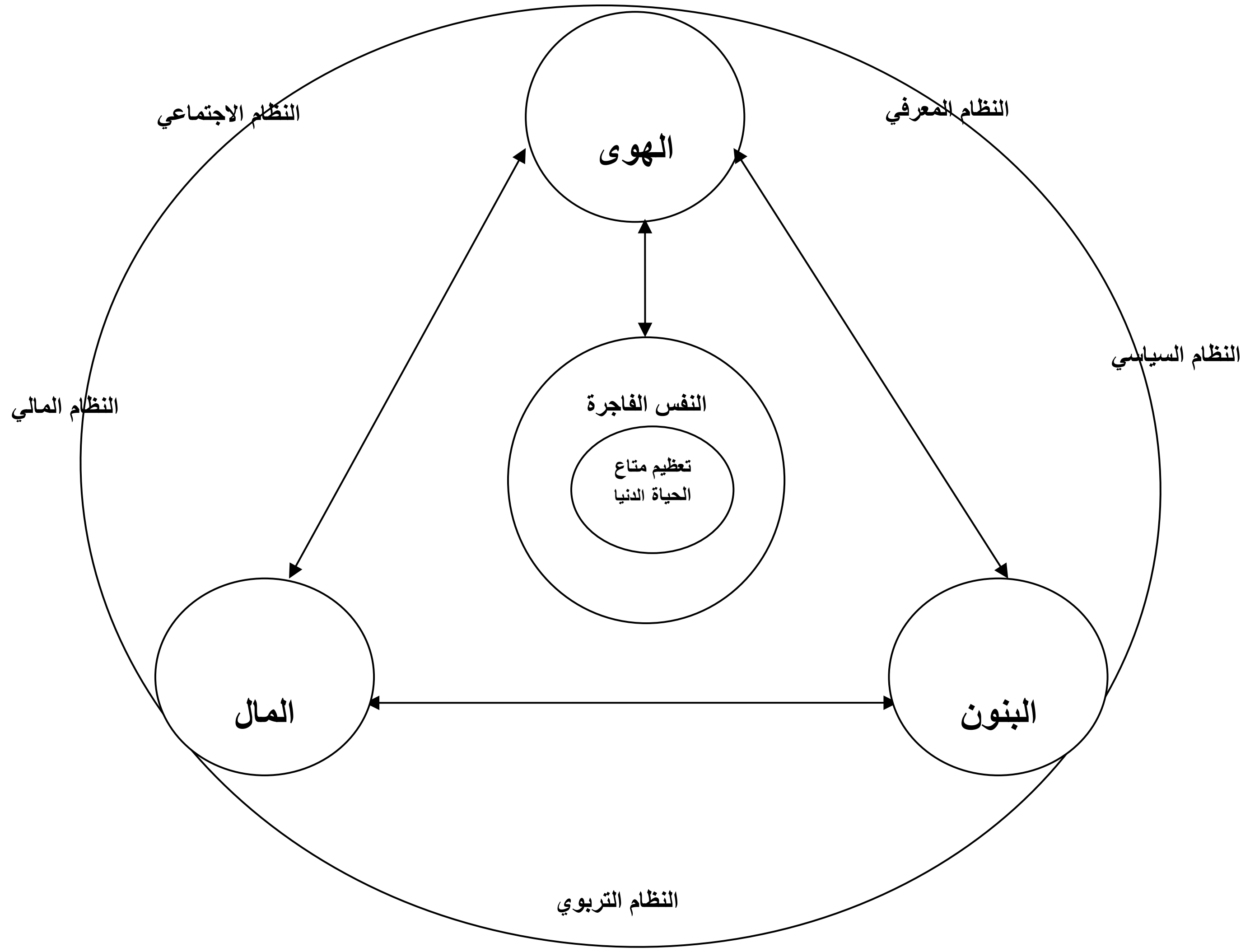

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هى التجلي التاريخي الأتم **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن النظام القرآني للاجتماع الإنساني أعلاه يمكن أن يمثل "**برنامج بحث علمي**"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التجليات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان. ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله، وباتباع المنهج العلمي الصارم(الاستقراء، الاستنباط**)**، تدبرا في القرآن، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدت تجلياتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "**خطة الخلق العامة**"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تجلّت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "**خطة الخلق العامة**"، بحيث نتج عن ذلك التجلّي والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة. إنّ **خطة الخلق العامة** هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. لذلك فإن البحث العلمي في تجلياتها التاريخية سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات

التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق.

2- العلم والمعرفة في القرآن الكريم[2]

1.2- العلم:

نعرّف العلم بأنه: *اليقين بالحق المبتغى في المعلوم*. وينبني هذا التعريف على ثلاث قضايا وهي:(4)

1/ الوجود المستقل للحق موضوع العلم.

2/ يقين العالم بتحصيل هذا الحق(context of discovery)؛

3/ البرهان بصدق هذا اليقين(context of justification)

جاء في تعريف الحق في كتاب لسان العرب لإبن منظور ما يلي: "الحق نقيض الباطل، وحق الأمر يحقه حقاً، وأحقه: كان منه على يقين. والحق: من أسماء الله عز وجل، وقيل من صفاته". تثور هنا القضايا الآتية:

أولا؛ هناك القضية الوجودية، فالحق هو أساس الوجود، لأنّ الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، والحق هو مبتغى العلم، فلا علم في غياب الحق. والعلم إنما أصبح ممكناً لأن الحق موجود في كل ظاهرة من الظواهر، سواء كانت مادية، أم حيوية، أم إجتماعية، أم غير ذلك. فكل ظاهرة موجودة، يكون وجودها هو في ذاته حق، لأنه من خلْق الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ 73)(الأنعام)؛ (قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ 16)(الرعد)؛ (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ 96)(الصافات)، ثم لها حقيقة أو حقائق تعلم بوسائلها المناسبة. ولا نعني هنا الحقيقة المطلقة المتعلقة بالظاهرة، والتي لا يعلمها إلا الله، وإنما نعني الحقيقة الجزئية المحدودة، التي يبحث عنها الإنسان في الظاهرة المعينة.

ثانياً، هناك القضية المعرفية، أي إمكان وجود العلم بالحق المذكور في القضية الوجودية أعلاه، أي إمكان الوصول إلى الاعتقاد المطابق يقيناً للحقيقة التي يبحث

---

[2] - للتوسع في الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب المؤلف: "العلم والمعرفة بين نموذجين: الظاهرة السببئية حالة تفسيرية"(biraima.net)

عنها في الشيئ موضوع العلم. ونستطيع أن نجزم من القرآن الكريم أنه ما دام الحق موجوداً فإن العلم به موجود أيضاً. ولا علاقة لوجود العلم بإمكان تحصيله من قبل الناس، فهذه قضية تبحث في "**ثالثاً**".

ولأنّ الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، وجعل العلم سبيلاً وحيدا للوصول إلى الحق، فإنّ العلم بجميع المخلوقات، في كلياتها وجزئياتها، سواء كانت في عالم الغيب أو الشهادة، من صفاته سبحانه وتعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ 14)(الملك)؛ (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا 12)(الطلاق)؛ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 3)(سبأ). بل إنّ هذا العلم اليقيني بحقيقة الظواهر مسجل في كتاب مبين في الملأ الأعلى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 75)(النمل)؛(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 61)(يونس).

ولكن هذا العلم اليقيني بحقيقة الظواهر والأشياء التي تثير اهتمام البشر، وتدعوهم إلى البحث العلمي، ليس متاحاً كله لهم، لا في كلياته ولا في جزئياته، بل ينزل الله تعالى منه بقدر على من يشاء من عباده بما تقتضيه حكمته: (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء 255)(البقرة)؛ (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ 21)(الحجر).

فالعلم بالحقيقة الموضوعية للظواهر متاح للبشر بدرجات متفاوتة، ويمكن تحصيله إما من مصادره التي جعلها الله تعالى مرجعاً للعلم البشري في عالم الشهادة، وهي الوحي(القرآن، السنة) والكون، وإما بالاطلاع عليه في الكتاب المبين الذي أودع الله فيه ذلك العلم. ومصدرية الوحي والكون هي الأساس للعلم البشري، وسوف نعرض لذلك في موضعه من هذا البحث إن شاء الله.

وهذا الذي ذكرناه يصدق على الظاهرة الاجتماعية بصورة أخص، ذلك أنها، دون غيرها من الظواهر المعروفة للبشر، تقوم على سلوك ظاهر ودوافع باطنة تخفى عادة على الباحث العلمي، بل إنها لتدق وتخفى حتى على صاحبها، ولكن الله، الذي يعلم السر وأخفى، يحيط بالظاهر والباطن من أفعال الناس، ومن ثم تسجل حقيقة

الفعل والظاهرة الإجتماعية عنده كما هي: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ 52 وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ 53)(القمر)؛ (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 61)(يونس)؛ (اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا 14)(الإسراء)؛ (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ 62)(المؤمنون)؛ (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا 49)(الكهف)؛ (أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ 5)(هود).

ثالثاً: هناك القضية المنهجية، أي إمكان حصول الإنسان على العلم المتعلق بالحق، كما ورد في القضيتين الأولى والثانية. والقضية المنهجية هي أعقد قضايا العلم ولا شك، ذلك أنّ القضيتين الأوليين قضيتان موضوعيتان، تستقلان بوجودهما عن تدخلات البشر، ويمثلان الهدف الذي يسعى العالِم للوصول إليه، بينما المنهاج والمنهجية هما الطريق وخارطته اللذان لابد منهما للوصول إلى الهدف. ولما جعل الله تعالى الحق أساس الوجود، وجعل العلم به ممكنا، وكلّف الناس بتحصيل ذلك القدر من العلم الذي تتحقق به عبوديتهم وخلافتهم له في أرضه، كان لابد أن يجعل له منهاجاً يوصل الناس إليه، وإلا كان تكليفاً بما لا يطاق، وهو ممتنع. لكن أي طريق قبل أن يسلكه السالك لابد له من خارطة تحدد طبيعته وتبين معالمه، وتحدد وجهته وطوله، وهل يوصل إلى الهدف، وهل هو أفضل الطرق من حيث المسافة والأمن، وهل توجد على طوله خدمات ومعينات تحفز وتسهّل على سالكه سفره..إلخ. إنّ خارطة الطريق هذه، رغم أهميتها القصوى، إلا أنها لا تكفي ابتداءً لتبيان كل تفاصيل الطريق، إذ لابد من سلوكها لتُعلَم كل منعرجاتها ومتاهاتها وما يتفرع عنها من سبل قد تُشْكِل على السالك، وقد تكون هناك مفاجآت تظهر في حينها..إلخ. بل إنّ القرآن الكريم يبيِّن لنا أنّ الناس قد يؤثرون سبلا أكثر التواءً وتعقيدا، للوصول إلى الهدف، على سبيل أيسر منها خبروه وساروا عليه من قبل، ظلما لأنفسهم باتباع الهوى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ 18 فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ 19)(سبأ).

إذن الطريق(المنهاج) الموصل للعلم المفضي إلى الحق موجود، ولكن لما كان وضع خارطة الطريق(المنهجية) والسير في هذا الطريق(البحث العلمي)، كلّها أو جلّها، عمل يقوم به السالك(العالِم)، ويعتمد من ثم على خصائص ذلك السالك، أوشك أن يكون أمر المنهاج ومنهجيته في المجال المعرفي جهداً بشرياً خالصاً، لأنه يعتمد على السمع والبصر والفؤاد، وهي وسائل الإدراك التي خلق الله تعالى بها الإنسان:(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78)(النحل)؛ (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36)(الإسراء).

ولا سبيل إلى خلاص هذه الوسائل الإدراكية من تأثير العادات والمعتقدات والقيم والأهواء، وكل أنواع التحيزات البشرية، إلا بتجرد عزيز المنال. بل إنّ قيم البشر ومعتقداتهم ومقاصدهم الحياتية تؤثر مباشرة في تخيرهم للظواهر التي تثير اهتمامهم، وفي تفسيرهم لها، ونوع الحقائق التي يبحثون عنها، ومن ثم نوع العلم الذي يطلبون تحصيله، فالتحيز صفة ملازمة للبشر. ثم إذا تخلص المنهاج ومنهجيته من ركام الأهواء والشهوات واجهتهما محدودية القدرات والوسائل الإدراكية عند البشر، وعجزهم عن الإحاطة بكل الكليات والجزيئات التي يقوم عليها الكون بعوالمه المختلفة. وهكذا يظل الكسب العلمي للبشر محدوداً مهما تراكم؛ وظنياً مهما تعاظم؛ بل إنّ التوجهات المعرفية لما بعد الحداثة في الغرب تنكر إمكان العلم بالحق الذي يقوم عليه الوجود من قبل البشر، ومن ثم جعلت رؤى العالم التي تتنافس في تفسير هذا الوجود كلها سواء، وليس لأي منها مصداقية تتفوق بها على غيرها، ومن ثم فالأمر نسبي ويجب السماح لها جميعا بالتعبير عن نفسها، والتسامح مع أولئك الذين يرون العالم من خلالها.

اليقين هو العلم وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. وفي الاصطلاح: الإعتقاد الجازم المطابق الثابت، أي الذي لا يزول بتشكيك المشكك. واليقين هو درجات في العلم، فليس من رأى كمن سمع، وليس من باشر وخَبِر كمن رأى وسمع؛ فعلم اليقين هو أول درجات العلم، يليه علم عين اليقين، وأعلاه علم حق اليقين، والله أعلم.

العلم جوهر يستقل بوجوده عن الإنسان العالِم، لذلك فإنّ اليقين يتعلق بالمنهج الذي يتبعه العالم للوصول، أولاً؛ إلى العلم الذي يطلبه، ومن ثم درجة اطمئنانه القلبي إلى ما توصل إليه، فقد يكون ظناً راجحاً، وقد يكون يقيناً رافعاً للظن، في درجات اليقين الثلاث: علم اليقين؛ علم عين اليقين؛ علم حق اليقين. وهذه المرحلة تسمى في فلسفة العلوم مرحلة الكشف والإلهام(context of discovery)، حيث يظل العلم خاصا بصاحبه. ثم، ثانياً؛ للوصول إلى إقناع غيره من العلماء بصدق يقينه هذا حيث يلزمه الدليل والبرهان، وتسمى هذه المرحلة في فلسفة العلوم مرحلة التبرير(context of justification). وقد يظل العلم مقتصرا على صاحبه لملابسات تتعلق بطبيعة العلم أو العالِم أو المنهاج.

العلم، كما عرّفناه سابقاً، له في القرآن مكان علي وشأن عظيم، فقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه عليم وعالم وعلاّم، وجعل العلم هو الفيصل في اتخاذ المواقف والخيارات العقدية وغيرها: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36)(الإسراء)؛ (مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157)(النساء)؛ (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ 119)(الأنعام)؛ (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ 148)(الأنعام). كذلك قصر الله سبحانه وتعالى تقواه وخشيته على العلماء من عباده، لا سيما الراسخون منهم في العلوم الكونية، ورفعهم درجات على من سواهم من عباده المؤمنين: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ 27 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28)(فاطر)؛ (قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ 27)(النحل)؛ (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ 11)(المجادلة). كذلك وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأنه علم: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ37)(الرعد)؛ (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ 61)(آل عمران).

2.2- المعرفة

نبدأ تقصينا للمفهوم الذي تحمله هذه الكلمة الشائعة (معرفة) بإيراد عدد من الآيات القرآنية التي وردت فيها، ثم نعقب ذلك بشواهد من تعريفات لهذا المفهوم من قبل عدد من

علماء المسلمين، ثم نورد ما بدا لنا من أبعاد أخرى لمفهوم المعرفة مما لم يؤكده الآخرون، ومن ثم نقوم بمحاولة لتوضيح العلاقة بين "العلم" و"المعرفة":

(1) (وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ 30)(محمد)؛

(2) (وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ 58)(يوسف)؛

(3) (وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ 89)(البقرة)؛

(4) (وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ 83) (المائدة)؛

(5) (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ 72)(الحج)؛

(6) (لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ 273)(البقر)؛

(7) (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ 93)(النمل)؛

(8) (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ 69)(المؤمنون)؛

(9) (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ 146)(البقرة)؛

(10) (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ 46)(الأعراف)؛

(11) (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ 83)(النحل)؛

(12) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا 59)(الأحزاب)؛

(13) (وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥)(يونس).

جاء في "لسان العرب" لإبن منظور عن المعنى اللغوي للمعرفة ما يلي:

"عرف؛ العرفان: العلم؛ قال ابن سيدة: وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان. والتعريف: الإعلام؛ والتعريف أيضاً إنشاد الضالة...عرّف فلان الضالة، أي ذكرها وطلب من يعرفها،

فجاء رجل يعترفها، أي يصفها بصفة يُعلم أنه صاحبها. وفي حديث ابن مسعود: فيقال لهم هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إذا اعترف لنا عرفناه، أي إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عرفناه. والمعارف: الوجوه. والمعروف: الوجه،لأن الإنسان يعرف به. والمعروف: ضد المنكر. والعرف ضد المنكر. والعرف والعارفة والمعروف واحد: ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به وتطمئن إليه".

والذي ترجّح لكاتب هذا البحث، بعد الإمعان في دلالة الآيات التي وردت فيها مشتقات كلمة معرفة، وكلها أفعال وليس من بينها إسم ولا صفة، وبعد النظر في الآراء المتقدمة لعلماء أجلاء، هو أنّ مفهوم المعرفة يتلخص في أنّ المعرفة هي:

"عملية توظيف ذهني لما تراكم في الذاكرة من معلومات حسية عن عالم الشهادة للتمييز الفوري بين المثيرات الخارجية التي تتصل بها في حياتنا العملية، ولتحديد ردود أفعالنا تجاهها. كل ذلك من خلال المقارنة فالمطابقة بين وارد الحس من معلومات عن المثير الخارجي ووارد الذاكرة الفوري من مخزون المعلومات عن ذلك المثير، وما يتبع ذلك من تداعي بقية المعلومات التي نمتلكها عن ذلك المثير مما يعمّق معرفتنا به".

ويمكننا أن نميز العمليات الذهنية والنفسية الآتية في العملية المعرفية:

1/ عملية الاستقبال(Reception) للمعلومات الحسية من المثير الخارجي؛

2/ عملية البحث(Search) عن معلومات في الذاكرة مطابقة أو مشابهة للمعلومات المستقبَلة؛

3/ عملية الاستحضار(Retrieval) للمعلومات المناسبة من الذاكرة؛

4/ عملية المقارنة(Comparison) بين المعلومات الواردة ومعلومات الذاكرة؛

5/ عملية المطابقة(Matching) بين نوعيْ المعلومات؛

6/ عملية التذكر(Remembrance) أو التمييز(Identification) للمثير الخارجي؛

7/ عملية التعرف(Recognition) على المثير الخارجي؛

8/ عملية رد الفعل(Reaction) على المثير الخارجي.

هكذا تبدو لنا المعرفة باعتبارها عملية(Process) ذاتية(Subjective)، يمارسها جميع الناس بتلقائية فطرية(Innate) وفورية(Instantaneous)، وفي جميع الأحوال التي يحتفظ فيها الإنسان بوعيه(Consciousness)، وذلك من أجل تسيير حياتنا العملية العادية. العملية المعرفية إذن هي حقيقة وعينا بمحيطنا الخارجي وأساس الفعل والاتصال الاجتماعي، والوسائل الأساسية التي

نمارس من خلالها هذه العملية هي وسائل الحس الناقلة للمعلومات من المحيط الخارجي، والقلب المعني بكل العمليات الإدراكية والانفعالية في دواخلنا. ولما كانت هذه طبيعة المعرفة فإنها من خصائص المخلوقين الذين قد يتذكرون فيعرفون، وقد ينسون فينكرون، ولا تجوز في حق الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

3.2- العلاقة بين العلم والمعرفة

إذا كان هذا هو مفهوم المعرفة وقد سبقه تبيان ماهية العلم فما هو الفرق بينهما، وما هي نوع العلاقة التي تجمع بينهما؟

الفرق الأول؛ الذي يبدو لنا، هو أن المعرفة عملية(Process) ذاتية(Subjective) لا تنفك عن الشخص الذي يمارسها، بينما العلم جوهر مستقل(Objective) عن ذات الإنسان. والذاتية التي يمكن أن تنسب إلى العلم لا تتعلق بجوهره وإنما برؤية العالم ومسلماتها التي تحدد للباحث مصادر علمه ومحتواه ومنهجيته وأهدافه. ولكن في إطار هذه المسلمات القبلية يظل العلم المبتغى جوهر مستقل، وتتمتع منهجيته بموضوعية تسمح لأتباع الرؤية الكونية المعنية بمزاولة العملية العلمية من خلال هذه المنهجية بما يمكّن من جعل النتائج العلمية التي يصل إليها باحث ما حقاً مشاعاً للآخرين يمكن التثبت من صحتها من خلال تجاربهم المستقلة.

الفرق الثاني؛ الذي يبدو لنا، هو أنّ العملية العلمية عملية إبداعية تؤدي إلى إيجاد معلومات يقينية جديدة تضاف إلى رصيدنا العلمي عن شيء كان مجهولاً، كلّه أو بعضه، من قبل، بينما المعرفة هي عملية استرجاع لمعلومات قديمة في الذاكرة عن شيء كان معروفا لنا سلفا.

الفرق الثالث؛ هو أنّ هدف العلم الوصول إلى العلل والأسباب والحقائق التي تحكم الأشياء، بينما هدف المعرفة هو مجرد التمييز بين الأشياء.

الفرق الرابع؛ هو سمة التلقائية التي تمارس بها العملية المعرفية بينما العملية العلمية تقوم على الرصانة والأناة والتثبت المنهجي. لذلك فالمعرفة يمارسها جميع الناس، بل حتى الحيوانات والحشرات تمارسها، لأنا نرى حياتها اليومية تعتمد على التمييز بين موجودات المحيط الذي تتحرك فيه، بينما إنتاج العلم لا يمارسه إلا الخاصة من الناس.

الفرق الخامس؛ هو أنّ المعرفة لما كانت عملية ذاتية فإنّه يمكن فيها الإنكار بحق، والإنكار المتعمّد دون الخوف من كشف الآخرين للحقيقة، ولعل هذا يؤكده قوله تعالى في الإنكار الحقيقي: (وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ58)(يوسف)، وفي الإنكار المتعمّد: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ 83)(النحل). والإنكار هنا مع

معرفة النعمة هو تغطية(كفر) لها وجحود بها. أما العلم فلأنه جوهر مستقل، ومنهجيته يُتوخّى فيها الموضوعية، فإنه بعد الوصول إلى الحقيقة العلمية ونشرها على الملأ، لا يمكن إنكارها، وذلك لإمكان التثبت من صحتها بسهولة وبصورة مستقلة من قبل العلماء الآخرين. لذلك كان ضد العلم الجهل، وضد المعرفة الإنكار، سواء كان إنكاراً حقيقياً أم متعمداً.

الفرق السادس؛ هو أنّ العلم لا ينبني إلا على اليقين، بينما المعرفة يمكن أن تبنى على اليقين وعلى الظن، بحسب نوع المعلومات التي تحملها الذاكرة عما يراد تمييزه، وبحسب جودة وارد الحواس من المعلومات الخارجية.

الفرق السابع؛ هو أن المعرفة لما كانت استجابة إدراكية لمثير خارجي باشر الحواس في إطار حركة الحياة اليومية، فإنه لابد فيها من رد فعل مهما كان ضئيلاً، أو غير محسوس(قلبي)، ولعل هذا يؤيده الحديث الشريف: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". أما العلم فلأنه جوهر مستقل يتعلق بحقائق الأشياء فيمكن إنتاجه وتدوينه، ومن ثم تعلمه من الكتب، أو بالسماع، دون مباشرة المتعلم بنفسه لموضوع العلم، وبصورة ذهنية مجردة عن الإنفعال، ورد الفعل المصاحب للعملية المعرفية، والناجم من أنه لابد من أن يباشرها الشخص بنفسه.

والآن لنرى ما هي العلاقة التي تجمع بين العلم والمعرفة؟ العلاقة الأساسية بين العلم والمعرفة التي تكشفت لنا من تحليلنا لكل من المفهومين هي أنّ العلم ينبغي أن يرفد العملية المعرفية بالمعلومات اليقينية، إضافة إلى المعلومات الحسية الأولية، التي تختزن في الذاكرة عن المثيرات الخارجية، وهي العنصر الأساسي في العملية المعرفية كما ذكرنا. فكلما كانت هذه المعلومات يقينية (علمية) كلما كانت معرفة الإنسان بمحيطه الخارجي صحيحة ومبنية على العلم، ومن ثم تكون ردود أفعاله سليمة وحكيمة، وكلما كانت هذه المعلومات ظنية(وهمية) كلما كانت معرفة الإنسان خاطئة ومبنية على الجهل، ومن ثم تكون ردود أفعاله خبط عشواء. والحقيقة هي أننا إذا استثنينا المعلومات الحسية الأولية عن المحيط الخارجي التي يكتسبها الإنسان بخبرته العملية، والتي غالباً ما تكون صحيحة، مثل تمييز الرجل عن المرأة، والحمار عن البقرة، والطائر عن الزاحف، بل ودقائق الأوصاف الظاهرة عن الأشياء، فإنّ ما وراء هذه المعلومات البسيطة الظاهرة، مما يحمله غالب الناس عن بيئتهم المباشرة وكونهم العريض، هي مجرد ظنون ولكنها مع ذلك تشكّل أساساً لمعرفتهم، ويرسمون حياتهم بمقتضاها، ويحددون مواقفهم بناء عليها. ذلك أن معرفتنا لمحيطنا الخارجي لا تقتصر فقط على تمييز الأشياء من خلال السمات الظاهرة لحواسنا، ولكن في ذات اللحظة تتداعى كل المعلومات المختزنة في ذاكرتنا عن الشيء موضوع المعرفة ليكتمل إدراكنا له، ومن ثم حكمنا عليه.

والمطلوب هو أن تكون حقائق العلم هي أساس المعرفة البشرية لا الأهواء والظنون: (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ 36)(يونس)؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ 12)(الحجرات). والظن الذي ليس بإثم هنا هو ذلك الذي يصادف الحق كما في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ 46)(البقرة). وهو ظن منهجي بسبب عدم إمكان الوصول إلى اليقين لقصور في المنهج، والاستقراء خير مثال على ذلك، ومن ثمّ سُمّي الظن المنهجي الراجح علماً، مع أنه حقيقة ليس كذلك إلا إذا صادف الحق الذي يتوخاه.

هكذا يبدو لنا الدور الحاسم للعلم في العملية المعرفية، لذلك فنحن عندما نقارن النظامين المعرفيين(التوحيدي والدنيوي) فإنما نقارن قدرتهما على مد الإنسان بالعلم عن كل حقائق الوجود التي يحتاج الإنسان إلى العلم بها، سواء تلك المتعلقة بعالم الشهادة أو بعالم الغيب. والعلم، لا المعرفة، هو الذي أعلى القرآن شأنه، ووصف الله تعالى به نفسه ووصف به عباده الذين يخشونه: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28)(فاطر). ولكن العلم لا قيمة له إلا إذا أصبح أساساً لمعرفتنا(عملنا)، كما روى عنه، صلى الله عليه وسلم: "إعلموا ما شئتم فلن ينفعكم الله به حتى تعملوا به"، ومن ثم تصبح الطريقة التي يستطيع بها النظام المعرفي جعل العلم أساساً للعمل والاتصال قضية ذات خطر، وينبغي أن تعطى الاهتمام اللازم.

4.2- مُتاحات العلم في نظام الاجتماع التوحيدي ونظام الاجتماع الدنيوي

أصول الاجتماع الإنساني التي استخلصناها من القرآن الكريم في القسم الأول من هذا البحث تمخضت عن وجود نظامين للاجتماع الإنساني، هما نظام الاجتماع التوحيدي ونظام الاجتماع الدنيوي. لكل من هذين النظامين الاجتماعيين نظامه المعرفي الذي يحدد نوع وسقف العلم المتاح وتوظيفاته، فهناك النظام المعرفي التوحيدي المنبثق عن رؤية العالم التوحيدية المعبرة عن خيار "**الدار الآخرة**"، وهناك النظام المعرفي الدنيوي المنبثق عن رؤية العالم الدنيوية المعبرة عن خيار "**الحياة الدنيا**". إذن فالنظامين المعرفيين الذين نحن بصددهما تضرب جذورهما في "**خطة الخلق العامة**" من حيث قيامهما على ثنائية النفس البشرية المذكورة في القسم الأول من هذا ابحث. وهكذا نجد أن النفس بثنائيتها القائمة على ملهمات التقوى والفجور هي الحلقة التي تربط بين "**خطة الخلق العامة**" وبين نظرية المعرفة التي نحن بصددها.

والآن نحاول، إن شاء الله، إبراز أهم الخصائص التي تميز كلا من النظامين المعرفيين(التوحيدي، الدنيوي) وذلك من خلال أركان العلم الخمسة، وهي: المصدر؛ المحتوى؛ المنهجية؛ العالِم؛ المقصد.

1.4.2– متاحات العلم في النظام المعرفي التوحيدي

.1.1.4.2– **مصدر العلم**

هناك ثلاثة مصادر في النظام المعرفي التوحيدي أحدها أوّلي والآخران من دونه. أما المصدر الأول للعلم فهو الله سبحانه وتعالى، وهو مصدر كل شيء كما قال عن نفسه: (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ 16)(الرعد)؛ (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ 21)(لحجر)؛ (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ 53)(النحل)؛ (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ 255)(البقرة)؛ (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78)(النحل)؛ (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ 5)(العلق).

أما المصدران اللذان من دون الله فهما: الوحي(القرآن، السنة)، والكون المحسوس(عالم الشهادة)، حيث جعلهما الله تعالى مستقراً ومستودعا لكل العلوم التي يحتاجها البشر في حياتهم الدنيا.

2.1.4.2 – محتوى العلم

الإنسان الذي استخلفه الله تعالى في الأرض تتمحور طبيعته النفسية حول ثلاث خواص: الخاصية العقلية؛ الخاصية الوجدانية؛ الخاصية الإرادية. الخاصية العقلية معنية في الأساس بتمكين الإنسان من تكوين تصورات موضوعية للكون، أي من تكوين "رؤية علمية للعالم" تمكنه من التعرف على هذا الوجود الذي هو جزء منه، وإن كان الغالب أن تجنح "رؤية العالم" إلى الذاتية حيث يُغيّب العلم وتتمكّن الأهواء. أما الخاصية الوجدانية فهي التي يعتمد عليها الإنسان في تحويل رؤية العالم العقلية إلى رؤية ذاتية للحياة حيث يبني كل إنسان تفضيلاته القيمية ومقاصده ودوافعه الحياتية المنبثقة عن ثقافته الاجتماعية التي تشكلت بدورها من رؤية العالم المشتركة. وهذه الرؤية الحياتية هي التي من خلالها يتعامل كل إنسان مع

الحياة ويتأسس عليها عمله، وتمثل بصمة خاصة به تعبر عن شخصيته المتفردة رغم أنها تتأسس على قواسم مشتركة مع آخرين بحيث تسمح بإقامة مجتمع يضم أولئك الذين يتشاركون رؤية العالم المعنية. الخاصية الثالثة، وهي الإرادية، فهي معنية بتمكين الإنسان من تحويل رؤيته الحياتية إلى أفعال إرادية تمكنه من تدبير حياته ومعاشه.

إن دين الإسلام يقوم على محاور ثلاثة، وهي متفاعلة ومتكاملة؛ المحور الأول هو العلم التوحيدي(عمارة العقل) الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب والعمل الصالح في الأرض؛ والمحور الثاني المتولد عن المحور الأول هو الإيمان بالله تعالى(عمارة القلب)؛ والمحور الثالث المتولد عن تفاعل المحورين السابقين هو العمل الصالح(عمارة الأرض) في زينة الحياة الدنيا(المال والبنون)؛ فلا إيمان بلا علم، ولا عمل صالح إلا بعلم وإيمان، ولا نفع لعلم ولا لإيمان حتى يعمل بهما. هذه العلاقة التفاعلية تؤدي استدامتها إلى نمو مستدام في كل من العلم والإيمان والعمل الصالح مما يؤدي إلى حفظ صلاح الأرض واستدامة هذا الصلاح.

يجب أن نلاحظ أن هذه المحاور الثلاثة لدين الإسلام تقابل تماما الخصائص الثلاث لتركيبة النفس البشرية بحيث يصبح الدين من خلالها رؤية عقلية للعالم ورؤية وجدانية للحياة وعملا صالحا لعمران الأرض. الشكل التالي يلخص العلاقة بين التركيبة النفسية للإنسان في أبعادها الثلاثة وبين الدين بمحاوره الثلاثة.

شكل رقم (4)

العمران التوحيدي

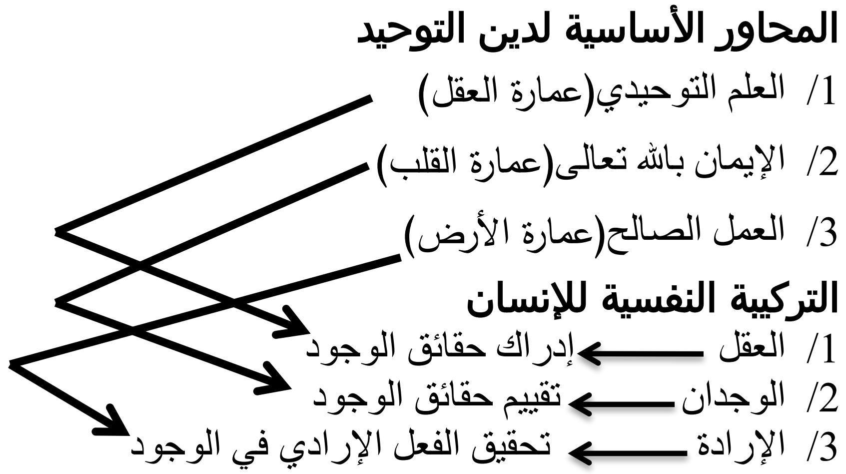

إن الحقيقة التي يجب تأكيدها هنا، هي أن خصائص النفس البشرية الثلاث التي ذكرناها آنفا(العقلية، الوجدانية، الإرادية) مستقرها ومستودعها "القلب" بمفهومه القرآني، وهو مفهوم جليل وخطير. القلب في القرآن والسنة هو جوهر الإنسان، ويجب أن يكون المستهدف بالعمران التوحيدي، على المستوى العقلي لأنه هو الذي يعقل كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم. فهو الذي يعقل لأنه هو الذي يبصر حقيقة، فإذا عمي لم تنفع رؤية العين للأشياء، إلا فيما ظهر منها، وكم للأشياء من ظاهر وباطن: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾)(الحج). وهو الذي يعقل لأنه هو الذي يسمع حقيقة، وإذا طُبع عليه لم ينفع سماع الإذن للأصوات واللغات، إلا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، وكم للغات من دلالات وإشارات: (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾)(الأعراف).

إن القلب هو الواصل بين العبد وربه، وهو الواصل بين الوحي والعمل الإنساني الصالح من جهة وبين العمل الإنساني الصالح والخلق الكوني من جهة أخرى، لذلك فإن الله تعالى لا ينظر إلى صور الناس ولكن ينظر إلى قلوبهم. إن القلب خُلق ليكون عابدا؛ فلابد له إذن من إلاه، فإن لم يكن الله كان إلاهه هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هُدىً من الله. إن الهوى هو سفير الشيطان في قلب كل إنسان، وهو لذلك مستقبلٌ لكل أنواع الواردات الشيطانية، ابتداءً من الوسوسة، مرورا بكل أنواع الغواية الصوتية والمرئية، والأفكار الإلحادية، وانتهاءً بكل أنماط الفعل والاتصال الاجتماعي المفضي إلى الفساد في الأرض. وفي آيات قرآنية بليغة يسأل الله تعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، الملائكة عن ماذا كان يعبد الناس من دون الله في حياتهم الدنيا، وهو أعلم بما كانوا يفعلون: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ

إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١)(سبأ).

من الدلالات المهمة لهذا التحليل أن علوم الإسلام التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في الحياة، وتحقيق الاستخلاف التوحيدي، المستقاة من الوحي والكون، هي في الأساس علوم كونية تجريبية، باستثناء العلوم العقلية المحضة كعلوم المنطق والرياضيات وقضايا فلسفة العلم التي هي مما لا يتم الواجب إلا به[3]. وهناك علوم أخرى يسمح بها النظام المعرفي التوحيدي إلا أنها ذات طبيعة لازمة غير متعدية تعتمد على كسب المؤمن من تقوى الله تعالى، والعمل بها يلزم من علّمه الله تعالى إياها.

ونقصد بالتجريبية الآتي:

(البحث التجريبي هو وسيلة لكسب العلم بطرق الملاحظة أو التجربة المباشرة أو غير المباشرة. الدليل التجريبي– السجل المباشر للملاحظات والتجارب– يمكن تحليله كميا أو نوعيا. ومن خلال الصياغة الكمية للدليل أو الفهم النوعي له يستطيع الباحث الإجابة عن أسئلة ذات طبيعة تجريبية مصاغة بصورة واضحة تسمح بالإجابة عنها من خلال ما تم جمعه من أدلة. يختلف تصميم البحث بحسب المجال والقضية محل البحث، وهناك من الباحثين من يجمع بين شكليّ التحليل، الكمّي والنوعي، للحصول على إجابة أدق لتلك الاسئلة التي لا يمكن دراستها معمليا، لا سيما في مجال العلوم الاجتماعية وفي التعليم.)[4]

التجريبية لا تعني "الوضعية"، بل تعني أن تحتوي المقولات العلمية، أنّى كان مصدرها، على محتوىً تجريبي يمكن من خلاله اختبار صدقيتها. ونحن هنا نقول إن العلوم الضرورية التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في واقع الحياة المتجدد أبدا، سواء كان مصدرها الوحي أو الكون، سوف يكون المكوّن التجريبي سمة أساسية فيها. ذلك أن العلم الضروري المطلوب في الإسلام هو العلم المتعلق بالمحورين الثاني(الإيمان) والثالث(العمران)، بينما العلم المطلوب للمحور الأول(العلم التوحيدي) فيمكن تسميته ب(علم العلم)، ويدخل في باب ما لا يتم الواجب إلا به، وفيه تبحث القضايا التي تبحثها فلسفة العلوم عادة، مثل القضية الوجودية، والقضية

---

[3] - لا يدخل فيما نعنيه تلك العلوم التي تسمّى باللدنية التي يختص الله تعالى بها من يصطفي من عباده وغير قابلة للتعميم، وإن كان النظام المعرفي الإسلامي يسمح بها.

4- موسوعة وكيبيديا

المعرفية، والقضية المنهجية. وفي إطار "علم العلم" هذا تناقش قضايا إسلامية منهجية مثل: "كيف نتعامل مع القرآن"؛ "كيف نتعامل مع السنة"؛ "منهجية القرآن المعرفية"؛ "الجمع بين القراءتين"؛ "التكامل المعرفي"؛ "أصول الفقه"...إلخ. أما العلم المتعلق بالإيمان فإن أدلة الإيمان، كما وردت في القرآن، إضافة إلى القرآن ذاته كدليل إيمان مستقل بذاته باعتبار أن الحق الذي فيه شاهد على مصدره، هي أدلة كونية تقتضي النظر العلمي في الكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي، وأما علوم العمل الصالح في مجال عمران الأرض فهي بالضرورة علوم كونية، سواء كانت العلوم التي تتعلق بالمادة موضوع العمران، أو العلوم التي تتعلق بالإنسان الفاعل في المادة، بما في ذلك العلوم ذات الأبعاد المعيارية كعلوم الفقه والتربية. وميزان الحق في الأحكام المعيارية، فهما لحقيقتها وضبطا للفعل الاجتماعي بها، هو الوحي ابتداءً والنتائج العملية لتطبيقها في الواقع انتهاءً. والكونية هنا تشمل الظواهر الطبيعية والاجتماعية، مع تباين البيانات والإجراءات التجريبية التي تقتضيها الطبيعة الخاصة بكل من الظاهرتين، ومن ثم حتى علم الفقه، ذو المنطلقات المعيارية، المعني بدراسة أحكام التكليف وأحكام الوضع للفعل الإنساني، هو علم كوني اجتماعي تجريبي، ذلك أن الفقيه قبل أن يصدر حكمه على الواقعة لابد له من دراستها، ولابد له في ذلك من توظيف المناهج التجريبية التي ينبغي تطويرها في مجال العلوم الاجتماعية الإسلامية. والمعيارية والقيمية الآتية من الوحي لعلوم الحياة الإسلامية مطلوب العمل بها في الواقع لتغيّره ثم لتحكُمه ليتحقق الصلاح في الأرض ويدوم، ولا سبيل إلى التحقق من سلامة الفهم والاستنباط من نصوص الوحي وسلامة التطبيق إلا بعلوم تبدأ من الوحي وتنتهي بدراسة الواقع وأخذ بياناتها منه. لذلك حتى علم التربية الإسلامي هو علم تجريبي يقوم على تطبيق المنهج النبوي في تزكية النفس، ويقتضي ذلك من العالِم المربّي القيام بتجارب تربوية يتم تصميمها بعناية تناسب طبيعة القيمة السالبة المراد التخلّي عنها، أو القيمة الموجبة المراد التحلّي بها، والوضع الحالي للشخص المستهدف بالتزكية والبيئة العامة التي تحيط به ويتأثر بها ويؤثر فيها، سواء كانت التجربة للعالِم في خاصة نفسه، أو بهدف تأديب مريديه. تنبني التجربة التأديبية على علم أوّلي أصل منشئه الوحي، يسبق التجربة ويحيط بكل عناصرها، ومن بعد ذلك وأثناء العملية التربوية تتم مراقبة القلب وأحواله، وأنماط الاستجابة التي تبديها النفس، والسلوك الناجم عن ذلك في مختلف الأحوال، ورصد وتصنيف كل ذلك بحسب مناسبته أو مجانبته للمطلوب لنجاح التجربة التربوية، ثم التعميم للحصول على قواعد العلم

المتعلق بالنفس البشرية في كل الأحوال التي تتطلب تأديب النفس، لا سيما فيما يتعلق بتخلّيها عن أخلاق الفجور وتحلّيها بأخلاق التقوى.

يدخل في معنى التجريبية أيضا الأفعال الاجتماعية التعبدية المتعلقة بالشعائر وعلومها من صلاة وصوم وحج وزكاة، لأنها، أولا؛ فعل اجتماعي تعبدي تتأثر بذات العوامل التي تؤثر في سائر أنواع الفعل الاجتماعي الذي من طبيعته أن يكون تعبديا في المجتمع المسلم، وقد يكون غير ذلك بحكم الواقع، وثانيا؛ لأنه لا عمل صالح عمراني إلا بها. والعمل الصالح هو ما كان خالصا لله ومنضبطا بما أقره الشارع من أحكام ووسائل تتعلق به. الصلاة، مثلا، تنهى عن الفحشاء والمنكر كما جاء في القرآن الكريم، وهي جملة خبرية، يصدقها المؤمن اعتقادا بيقينه من الحق الذي جاء به القرآن الكريم، ولكن التصديق العملي لها يقتضي التجريب(العمل)، أي أن يصلي المسلمون كما رأوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، يصلي، ليتبينوا حقيقة الخبر. وبعد تجربة الصلاة كعبادة وعمل اجتماعي راتب للمؤمنين يجب أن تأتي الدراسة الميدانية لمعرفة أثرها على المصلّين وعلى بيئتهم الاجتماعية والطبيعية، فإن تبين أنها لم تؤد إلى النتيجة المخبر عنها ترتب على ذلك مراجعة كيف صلّى المصلّون، أي مراجعة جملة العمل المتعلق بالصلاة كفعل اجتماعي. كما يمكن القيام بتجربة أخرى تحكمية حيث نختار عينات تصلي وأخرى لا تصلّي لنقارن أثر الصلاة على متغيرات كثيرة، كمية ونوعية، فردية واجتماعية. ذلك أن المجال الحقيقي للفحشاء والمنكر، اللذين تنهى عنهما الصلاة، إنما هو زينة الحياة الدنيا(المال والبنون) حيث ابتلاء النفس بفجورها وتقواها، تدافعا بين الناس لتعظيم حظوظهم من المتاع الدنيوي: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾)(الكهف)؛ (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾)(الكهف). لذلك فإن الاختبار الحقيقي لاعتبار جدوى الصلاة كعبادة مقبولة عند الله تعالى، وكعمل اجتماعي صالح عند الناس، هو اختبار تجريبي يكون بتحقق أثرها في المجال الاجتماعي، وقد قال الله تعالى في ذلك: (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾)(الماعون). بهذا

الاعتبار يظهر البعد الاجتماعي للصلاة وللعلم المتعلق بها، وهي للأسف أبعاد غائبة، على الجملة، عن الصلاة كفعل اجتماعي، وعن فقهها الموروث. ويصدق ذلك بدرجات متفاوتة على بقية الشعائر التعبدية، فالتقوى المرجوة من عبادة الصوم مجال تحققها اجتماعي(شهوتي البطن والفرج)، وصدقة المال التي تطهّر وتزكّي تحقق ذلك في المجال الاجتماعي، والحج لا يكون مبرورا إلا إذا أدى بصاحبه إلى التجافي عن دار الغرور(الحياة الدنيا) والإنابة إلى دار الخلود(الآخرة). وحقيقة الأمر أن علم الأحكام الشرعية المتعلق بالشعائر التعبدية(فقه العبادات) هو علم محدود ومستقر وقتل بحثا، وليس هناك الكثير الذي يمكن إضافته إليه مهما تقدم الزمان، ولكن العلم المتعلق بالأبعاد الاجتماعية لهذه الشعائر، سواء في تحققها كعبادة أو في آثارها، هو مجال للعلوم الاجتماعية بكر في مجمله وينتظر الاستكشاف. ولابد أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الصلاة والشعائر التعبدية الأخرى موضوعا للدراسة والتدريس والبحث العلمي في كليات الاقتصاد وغيرها من كليات العلوم الاجتماعية من حيث هي ظواهر اجتماعية ذات آثار بعيدة المدى في جميع أوجه الاجتماع الإنساني المسلم. ومثل هذه الأبحاث ونتائجها العلمية سوف تكون ذات أهمية بالغة في مراجعة وتصحيح الطريقة التي نقيم بها ديننا ونؤدي بها شعائرنا، فلو أن نتائج البحث العلمي الاجتماعي أثبتت تفشي الفحشاء والمنكر في المجتمع لاقتضى ذلك استنفارا من الفقهاء لمراجعة أمر الصلاة فيه. ومدار الأمر كله في هذه القضية المنهجية هو أن الدين يبدأ بعلم من الوحي وينتهي بعمل، والعمل هذا هو تجريب في الواقع الاجتماعي لحقائق الدين التي جاء بها الوحي، وهذا التجريب هو الذي يجعل علوم الأمة في المجال الاجتماعي، بما في ذلك الفقه، علوم ذات مكوّن تجريبي بالضرورة كالعلوم الطبيعية، مع مراعاة الاختلاف في طبيعة الظاهرتين وما يقتضيه ذلك من تباين في طبيعة القوانين التي تحكم الطبيعة والسنن الإلهية التي تحكم الاجتماع الإنساني، ومن ثم اختلاف البيانات والإجراءات التجريبية المطلوبة لكل من الظاهرتين. وبينما نجد أن مفهوم القانون العلمي مستقر في مجال الظاهرة الطبيعية فإن الانسان ما زال يتخبط في مجال الظاهرة الاجتماعية، وليس له من سبيل إلى علم يقيني فيها إلا بمرجعية الوحي الكريم، الذي يتكلم عن سنن الله الحاكمة لنظام الاجتماع الإنساني، حيث يتداخل الفعل الإلهي مع الفعل الإنساني. وعلى هذه السنن الإلهية، التي لا تتبدل ولا تتغير، ينبغي تأسيس العلوم الاجتماعية، وقد عرّفت السنة الاجتماعية بأنها:

" كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له، لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى، قد تكون مطابقة، أو مخالفة لما قصده الفرد، أو الجماعة من الفعل. وقد يخص تأثيرها الفرد، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون غير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي".

لذلك ليس مستغربا أن يكون المنهج العلمي التجريبي الذي تأسست عليه علوم الحضارة المعاصرة هو الوليد الشرعي للحضارة الإسلامية، ومن أكبر إسهاماتها للحضارة البشرية، كما يعترف بذلك علماء تاريخ العلوم الغربيين أنفسهم، حيث يقول بريقولت: (إن الإغريق نظّموا وعمموا ونظّروا، ولكن الطرق الصبورة في الملاحظة الدقيقة والمطوّلة، ومنهج الاختبار بعيدة كل البعد عن طباع الإغريق...إن ما نسميه بالعلوم جاء نتيجة لمناهج جديدة في التجربة والملاحظة والقياس أدخلت إلى أوروبا بواسطة العرب. إن العلم الحديث هو أكبر إسهامات الحضارة الاسلامية)[5]. وعندما انحسر المنهج التجريبي عن حياة الأمة الاسلامية مع انحسار حضارتها التوحيدية ذبل العلم، وأصبحت حياة الأمة كلها، أفرادا وجماعة، تسير بلا هدى. ولما انتقل المنهج العلمي التجريبي إلى أوربا من خلال عملية تثاقف حضاري مع العالم الاسلامي معلومة الزمان والمكان، إذا بالعلم الكوني يتنفس في أوربا، وإذا بالحضارة تدب الحياة في أوصالها هناك، ثم كان ما كان مما هو معلوم من أمرهم وأمرنا.

لذلك عرّفنا العلم التوحيدي تعريفا وظيفيا بأنه ذلك الذي (يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض)، وبهذا التعريف لم تعد لدينا علوم شرعية وعلوم كونية، ذلك أن الشريعة في القرآن هي الدين كله لقول الله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾). ودين

---

[5] - بروفيسور محمد عبد السلام(حائز على جائزة نوبل في الفيزياء): (The Future of science in Islamic Countries; (Islam and the Future, Islamic Summit, Kuwait, 1987

الإسلام هو شرعة(مقاصد)، ومنهاج(وسائل) لقول الله تعالى: (...لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴿٤٨﴾...)(المائدة).

3.1.4.2- العالِم:

نقصد بالعالِم هنا مجموعة الاستعدادات العقلية والوجدانية والإرادية اللازم توفرها عند الشخص الذي ينوي إنتاج العلم التوحيدي، الذي رسمنا خارطته العريضة آنفاً. ولا شك أن طالب العلم التوحيدي هو شخص يسعى، على المستوى العقلي، في طلب العلم، أولا؛ ليعقل آيات الله المجلوّة في كونه، وآياته المتلوّة في قرآنه، ليتحقق له إيمانه، ثم، ثانيا؛ لتسخير ذلك العلم للقيام بواجب الاستخلاف العمراني. وهو، ثانيا؛ يجاهد، على المستوى الوجداني، للتحقق بقول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28)(فاطر). وهو شخص مدرك لمقتضى قوله تعالى: (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ 282)(البقرة). وهكذا فإنّ طالب العلم التوحيدي شخص مشمر للتقوى، بكل ما تقتضيه من مجاهدة وما تتطلبه من علم. وهو، ثالثا؛ على المستوى الإرادي، دائما في محرابه العلمي، سواء كانت مكتبة أو معملا أو حقلا أو خلوة للتدبر والتفكر، لإنتاج العلم التوحيدي، الذي هو ميراث الأنبياء، وإتاحته للناس وبث ثقافته بينهم.

إذن فالعالم المسلم هو شخص تشكل (رؤية العالم التوحيدية) منطلقه لفهم الكون والحياة، ولهذا فإن قيم الإسلام ومقاصده الحياتية هما المعيار الذي يحدد أولويات البحث وضوابطه عنده. كذلك فهو شخص لا يدعي الحياد القيمي كباحث ولا يستطيعه تجاه قضاياه التي يبحثها، لا سيما في مجال الاجتماع الإنساني حيث الأحكام القيمية جزء أصيل من المنهج.

4.1.4.2. - المنهجية

لأنّ هذا الركن هو أهم الأركان في إطار نظرية المعرفة، وهو أعقدها كذلك فقد رأينا أن نبدأ بإيراد عينة من الآيات القرآنية التي سوف نبني عليها ما يتبع من حديث.

(1) (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78)(النحل)؛

(2) (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36)(الإسراء)؛

(3) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ 46)(الحج)؛

(4) (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ 179)(الأعراف)؛

(5) (وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا 28)(النجم)؛

(6) (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ 6 يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ 7)(الروم)؛

(7) (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ 16)(محمد).

لقد تحدثنا في فقرات سابقة عن مصادر العلم التوحيدي وعن محتواه وعن العالِم، وقد آن لنا أن نحدد طريق الحصول علي هذا العلم. إنّ الآية الكريمة رقم (1) تربط لنا بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من بعد جهل وبين وسائل تحصيل ذلك العلم، ألا وهي: السمع؛ البصر؛ والفؤاد، وقد أكدت الآية رقم (2) هذه الحقيقة. ولكن العملية الإدراكية في القرآن عملية معقدة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم العلم فيه، وارتباط كل ذلك بمدخل الناس إلى زينة الحياة الدنيا: أهو مدخل إيماني قائم على دوافع التقوى في النفس؟ أم هو مدخل شهواني قائم على دوافع الفجور فيها؟ فمن حيث يكون إقبال الإنسان على زينة الحياة الدنيا قائما على مبدأ: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ 37)(المؤمنون)، وهو مدخل مبرراته قيمية لا علمية، يكون قد حدد وبصورة حاسمة موقفه الإبستمولوجي كذلك. فمن الناحية الإبستمولوجية لا يتجاوز علم من كان خياره (الحياة الدنيا) معرفة ظاهرها، أي إنّ أقصى ما يصل إليه هو علم القوانين الكونية. وهذا ما أشارت إليه الآيتان (5،6)، حيث ربط المولى سبحانه وتعالى بين التولي عن ذكره والغفلة عن الآخرة وبين قصر العلم على ظاهر الحياة الدنيا، وأنّ علم من كانت الدنيا همّه لا يمكن أن يتجاوز ظاهرها. ومرد ذلك فيما يبدو لي إلى سببين: السبب الأول هو أن خيار الحياة الدنيا إنما هو خيار يقوم على اللهو واللعب؛ أي تعظيم اللذّات والمسرّات(المتاع) الدنيوية: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ 32)(الأنعام)؛ (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ 20)(الحديد). والذي تنحصر

همته في تعظيم اللهو واللعب لا يحتاج في ذلك إلى أكثر من معرفة القوانين الكونية، ومن ثم توظيفها لخدمة ذلك الهدف. وعلم القوانين ووسائل تحصيله متاح للجميع، مؤمنهم وكافرهم؛ وما كان عطاء ربك محظورا. وهذه الوسائل هي في مجملها حواس الإنسان، لا سيما السمع والبصر، ثم إعمال (الفؤاد) بقواعده المنطقية في المعلومات الحسية المتحصلة للوصول إلى نتائج منطقية، وفرضيات تجريبية يمكن التأكد من صحتها عن طريق التجربة في الواقع المشاهد. أما السبب الثاني فيعود إلى أنّ من يجعل همه تعظيم متاع الحياة الدنيا لا يفطن إلى وجود حقيقة أخرى وراء ظاهر هذه الحياة، ومن ثم يسقط من حسابه أي علم متعلق بهذه الحقيقة، ونحسب أن ذلك معنى قوله تعالى: (ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى 30)(النجم).

والحقيقة المؤيدة بالواقع، أنّ السعي لتعظيم متاع الحياة الدنيا يرسّخ في النفس أخلاق الفجور، مثل الشح والبخل والكبر والحسد والهلع..إلخ، وما ينجم عن ذلك من أعمال فاسدة في الأرض. وكلما رسخت هذه الدوافع في النفس، وكلما استدامت الأعمال الفاسدة بسبب ذلك، كلما صارت حجاباً كثيفاً يرين على القلب حتى تعرض النفس عن مجرد التفكير في إمكانية وجود حقائق وراء ظاهر الحياة الدنيا. بل إن النفس التي أطغاها الإنغماس في الشهوات لتجحد ذلك العلم، وإن جاءها به خبر يقين كالوحي: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ 14)(النمل)؛ (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ 33)(الأنعام). ويؤدي خيار الحياة الدنيا إلى حصر الأسباب والعلل للظواهر الكونية، طبيعية كانت أم إنسانية، في إطارها المادي البحت، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حِكَم وعبر تنطق بها تلك الظواهر، أو من أسباب وعلل تتجاوز ما هو ظاهر للحواس. وإلى هذا القصور في الإدراك تشير الآيات (3) و(4) حيث يعجز القلب عن تحصيل الفقه المطلوب من الظاهرة الكونية. وقد يصل الأمر في اتباع الهوى إلى أن يطبع الله على القلب فلا يترك الوارد إليه، من نبأ عن طريق السمع، أو مشاهدة عن طريق النظر، أثراً يفيد صاحبه. وإلى هذه الحقيقة يشير مضمون الآيات (3)، (4)، و(7).

الآيات القرآنية السابقة والقول الذي تلاها، تقودنا إلى القول بأن الجسر الذي يعبر عليه الإنسان من العلم بظاهر الحياة الدنيا إلى علم آياتها، ومن ظاهر نصوص القرآن إلى جواهر معانيه، إنما هو فقه القلوب. وفقه القلوب إنما ينال بتزكية النفس وذلك بتطهيرها من أخلاق الفجور، والتوبة عن مآلاتها العملية، وتربيتها على أخلاق التقوى، وحملها على العمل الصالح. وهذا

يعني أن التربية الإسلامية للإنسان، القائمة على منهج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتي فصّلها أئمة الإسلام، هي من صميم منهجية المعرفة الإسلامية. ومن صميم التربية الإسلامية للنفس أن ترى الكون بظواهره وعلله وأسبابه من خلال العين القرآنية، وهي عين لا تقف عند ظاهر الحياة الدنيا للبحث عن أسباب الظواهر أو غاياتها، بل تزاوج بين علوم الخبر القادم من وحي السماء وعلوم المختبر الناشئة من الحس والتجربة للوصول إلى الأسباب والغايات التي تحكم الظواهر الكونية. ذلك أن العين القرآنية عين مربوطة بأحوال القلب، تبصر حين يبصر، وتعمى حين يعمى. وينطبق هذا على الأذن القرآنية، وجميع وسائل الإدراك عند المسلم. وإبصار القلب أو عماه مرهون بموقف الإنسان من الابتلاء الثاوي في زينة الحياة الدنيا، كما تفصله (خطة الخلق العامة).

5.1.4.2- التطبيقات

أما وقد تحدثنا عن طبيعة العلم التوحيدي، ومصادره، وطبيعة العالِم، ومنهجيته، وجب علينا أن نختم بالهدف أو الغرض أو التطبيقات التي يراد بها ذلك العلم. إن العلم هو وسيلة لتحقيق غاية، وتلك الغاية في إطارها الإسلامي إنما هي تحقيق عبادة الله تعالى القائمة على مبدأ استخلاف الإنسان في الأرض. إذن العلم التوحيدي وسيلة يستخدمها الخليفة(الإنسان) لتنفيذ أمر المستخلِف(الله) فيما استخلف فيه(الأرض). وكل إنسان في مجالات حياته المتعددة هو خليفة لله في تلك المجالات، ومطلوب منه أن يراعي أمر المستخلِف فيها. وجوهر الاستخلاف يدور حول تعامل الإنسان مع زينة الحياة الدنيا، وما ينبغي عليه القيام به من واجب الشكر المقتضي للعلم والإيمان والعمل الصالح.

2.4.2 – النظام المعرفي الدنيوي

1.2.4.2 – مصدر العلم:

(1) وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ29)(الأنعام)؛

(2) (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ 37)(المؤمنون)؛

(3) (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ 24)(الجاثية)؛

(4) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ 103)(يوسف).

تخبرنا الآيات السابقة أن أكثر الناس حصروا اعتقادهم في الحياة الدنيا وحدها، وكفروا بما وراءها من عالم الغيب. وترتب على هذا الخيار أن أصبح مصدر العلم الوحيد بالنسبة لمن آثروا الحياة الدنيا هو ظاهرها، أي عالم المحسوسات. وهذه النتيجة تتطابق تماماً مع ما ذهبت إليه الفلسفة الوضعية.

2.2.4.2- محتوى العلم:

(1) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ 7)(الروم)؛

(2) (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا 29)(النجم)؛

(3) (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ 36)(يونس)؛

(4) (وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا 28)(النجم)؛

(5) (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157)(النساء)؛

(6) (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ 32)(الجاثية)؛

(7) (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى 23)(النجم)؛

(8) (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ 116)(الأنعام)؛

(9) (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ 148)(الأنعام)؛

(10) (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ116)(الأنعام)؛

(11) (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157)(النساء).

تخبرنا الآيات المذكورة في (1) و(2) إنّ الدنيويين عندما جعلوا مصدر علمهم الوحيد هو عالم المحسوسات، كان لابد أن ينحصر علمهم فيما يظهر منها لوسائل الحس، أي علم القوانين الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية. ذلك أن علم الآيات يقتضي الإيمان بعالم الغيب، ومن ثم فقه القلوب، وهو ما جحده الدنيويون. الآيات من (3–11) تصف الواقع المعرفي للبشر الممتد عبر تاريخهم الطويل، وفي قضايا معرفية شتى تغطي كل المساحة المعرفية للبشر، الممتدة بين عالمي الغيب والشهادة، ثم تلخّص القضية المعرفية في قانون ذهبي هو: (إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا). وهذا القانون يصدق على مستوى القضية الأنطلوجية، كما يصدق على مستوى القضية المعرفية. فالحق هو الذي قام عليه الوجود، وهو الذي ينبغي أن يكون متعلق ومطلوب العلم البشري، سواء كان فيما يتعلق بعالم الغيب، أو عالم الشهادة. فمتعلق العلم البشري إما أنه موجود فيصبح وجوده حقا، وإما أنه غير موجود فيصبح وجوده ظنا عند الناس، ولن يغني الظن من الحق شيئا في هذه الحالة. فالله تعالى إما أنه موجود أو غير موجود، وعيسى، عليه السلام، إما أنه قتل أو لم يقتل، والشخص الذي اتهم بقتله إما أنه قتله أو لم يقتله، وذرة الماء إما أنها تتكون من ذرّتيْ أيدروجين وذرة أوكسجين وإما لا.

والإدراك البشري إما أنه يبحث عن الحق فيصيبه فيصبح علماً، أو يخطئه فيصبح ظناً، أو أنه لا يبحث عن الحق فيصبح أيضاً ظناً وهوى متبع، وكل ما يقوله من هذا المنطلق فهو تخرّص. وكلتا الحالتين لا يغني الظن فيهما من الحق شيئاً، مهما ترجح الظن لدى صاحبه. أما اليقين فهو مقياس التحقق من مطابقة الاعتقاد الجازم الذي نحمله للحق الذي نطلبه في المعلوم، وهو درجات يبدأ بمجرد اليقين وينتهي بعين اليقين وحق اليقين.

والمعرفة البشرية إذا طلبت الحق في أي شيء فإن الإشكال الذي يواجهها دائماً هو المنهجية التي تمكنها من الإرتقاء بمعرفتها إلى درجة العلم، أي اليقين من أن الإعتقاد الجازم الذي نحمله عن المعلوم مطابق لحقيقته. وفي غياب الوحي الذي يحتوي على علم يقيني فإن البشرية عاجزة عن الاهتداء إلى منهجية تمكنها من إرساء علومها على قاعدة يقينية. وأفضل ما توصلت إليه في هذا الشان هو المنهج الاستقرائي التجريبي القائم على الملاحظة الحسية والرصد والتصنيف ثم التعميم، ثم التجربة، ولكنه ظل عاجزاً عن مد البشر بعلم يقيني، حتى في المجال الذي حقق فيه نجاحاً باهراً، ألا وهو مجال المادة. وبسبب هذا القصور الذاتي في منهجية المعرفة البشرية ظل رصيدها من العلم، بل وقدرتها على اكتساب العلم، عرضة للشك والزعزعة من قبل كبار العلماء والفلاسفة الغربيين.

ولكن الله تعالى أثبت في الآيات (1) و(2) أعلاه أن العلم بظاهر الحياة الدنيا(علم القوانين الكونية) ممكن تحصيله من قبل الدنيويين. والحق يقال إن المنهج الإستقرائي الظني قد

مكّن البشرية من اكتشاف الكثير من الحقائق الكونية التي أدت إلى انفجار العلوم الطبيعية والتكنولوجيا الحديثة. والظن الراجح الذي انبنى عليه العلم الطبيعي ليس ظنا في الحقيقة العلمية المكتشفة، ولا في الاعتقاد الجازم الذي نحمله عن تلك الحقيقة، ولكنه ظن في المنهج بحيث لا يمكّن العالِم من أن يدعي اليقين التبريري البرهاني في علمه حتى وإن وصل إلى درجة اليقين الكشفي الإلهامي. إذاً قولنا إن العلم البشري ظني لا ينفي أو يناقض القاعدة القرآنية: (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا 36)(يونس)، ذلك أن الحقيقة العلمية في ذاتها لا يمكن أن تكون ظنية، والفرضية التي أدت إلى اكتشافها لا يمكن أن تصنف كعلم إلا إذا صادفت في افتراضها كبد الحقيقة التي يسندها تراكم التجارب الواقعية المؤيدة. والظن الراجح وحده لن يكفي لتحويل الفرضية إلى علم، ولا متعلقها إلى حق، إلا إذا كان الحق أصلاً موجودا وصادفته الفرضية، ويظل الظن المنهجي يحكم العالِم وحده، لا الحق الذي يطلبه.

وخلاصة القول إن الذي نفهمه من الآيات القرآنية السابقة المتعلقة بمحتوى العلم هو أن العلم البشري المبتوت عن الوحي يقوم علي الظن، وأن المجالات المحدودة التي أمكن الوصول فيها إلى علم باستخدام مناهجه، ظل هذا العلم قاصراً على ظاهر الحياة الدنيا، ومسخراً لخدمة تعظيم متاعها، ولم يسخر للارتقاء بالبشرية نحو كمالها الذي هو العلم بالله تعالى وعبادته.

3.2.4.2.- العالِم

(1) (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ 22)(النحل)؛

(2) (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ 56)(غافر)؛

(3) (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ 2)(ص)؛

(4) (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 2)(الأنبياء)؛

(5) (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى 6)(العلق)؛

(6) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ 12)(محمد)؛

(7) (لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ 55) (النحل)؛

(8) (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ 32) (الجاثية)؛

(9) (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا 44)(الفرقان).

يخبرنا القرآن الكريم أنّ من قال: (إن هي إلا حياتنا الدنيا) إنما اختار في حقيقة الأمر أن يصرف همته إلى تعظيم متاعها، فهو إذن شخص لاه القلب، وغافل عن حقيقة الحياة

الدنيا، يستوي في هذا الأمر الجاهل وعالم الفيزياء من الدنيويين. والدنيوي في القرآن شخص تمكنت من نفسه أخلاق الفجور، قد استحب العمى على الهدى، فهو مستكبر، معرض عن الحق، فرح بما عنده من العلم، وغرّه الغرور فقال: (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ 32)(الجاثية).

4.2.4.2 – المنهجية

إنّ المبدأ الحاكم في منهجية ومنهاج تحصيل العلم، سواء كان العالم مؤمناً أم كافراً هو قوله تعالى: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78)(النحل). ونلاحظ أن القرآن الكريم يربط بين هذه الوسائل الإدراكية المعنوية وبين أعضاء الجسد الثاوية فيها بغرض الإدراك، فالسمع متعلق بالأذن، والبصر متعلق بالعين، والفؤاد متعلق بالقلب الذي في الصدر. فوسائل العلم عند جميع البشر متساوية من حيث المبدأ، وهي الحواس زائداً الفؤاد، ولكن قوة إدراك هذه الوسائل يعتمد على أحوال القلب، وأحوال القلب تعتمد على موقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا، وموقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا يعتمد على موقفه من الإيمان بالله تعالى، وعلى مقدار إيمان من آمن، أي بموقفه ومقدار إيمانه بالدار الآخرة بنعيمها وجحيمها، ومن ثم مقدار تزكيته لنفسه، وتطهيره لقلبه من فاسد الأخلاق والأعمال التي تحجبه عن إدراك حقيقة الكون كما هي عليه: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ 46)(الحج)؛ (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا24)(محمد)؛ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ 14)(المطففين)؛ (خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ 7)(البقرة)؛ (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون 26)(الأحقاف).

إذن فالمنهجية المعرفية عند الدنيويين، بحسب ما ورد في القرآن، ينقصها بعد أساس، ألا وهو القلب الذي يفقه ويعقل. وهذا القصور المنهجي إنما هو ناجم عن موقف قيمي جعل من تعظيم متاع الحياة الدنيا هدفا وقيمة عليا في الحياة، وأنكر الدار الآخرة، وادعى لنفسه رغم ذلك الحياد والموضوعية. وهذا الموقف القيمي حرم الدنيوي من المصدر الوحيد الذي يمده بكليات علمية مقطوع بصدقها يقينا، ألا وهو الوحي. ومن ثم فإن الكليات العلمية عند الدنيوي إنما تقوم على الفرض والتخمين في المنهج الاستنباطي، أو التعميم المؤسس على التجريد الاستقرائي الناجم عن الملاحظة الجزئية، السمعية والبصرية، القاصرة بحكم الموقف القيمي المسبق. وهكذا

فإنّ الظن وليس اليقين هو أهم سمة تميز منهجية البحث العلمي عند العالِم الدنيوي. والظن هنا قد يأتي من عدة مصادر منها عدم قدرة وسائل الحس على نقل حقيقة المحسوسات كما هي، ومنها عدم وجود اللغة البشرية المجرّدة من التعميمات والإبهام بحيث يمكنها التعبير عن المشاهدات الحسية كما هي، ومنها عدم القدرة على الإحاطة بكل جزئيات الظاهرة التي منها تستقرأ الكليات.

5.2.4.2 – التطبيقات

(1) (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ 20)(الحديد)؛

(2) (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ 32)(الأنعام)؛

(3) (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 2)(الأنبياء).

إنّ الآيات الكريمة السابقة تخبرنا أن رؤية العالم الدنيوية إنما تقوم على تعظيم متاع الحياة الدنيا، التي في جوهرها لهو ولعب، وتكاثر في الأموال والأولاد. إذن فإنّ الهدف الأساس من العلم في النموذج المعرفي الدنيوي هو اكتشاف أسباب الكون، ثم ترويضه واستغلاله لإشباع شهوات الإنسان من متاع الحياة الدنيا. وهذه النتيجة تطابق تماماً جوهر الحضارة الغربية المعاصرة، سواء كان على مستوى الفكر أو التطبيق.

الشكل رقم(5) أدناه يلخص المقارنة بين مُتاحات العلم في النظامين الاجتماعيين التوحيدي والدنيوي، في الأركان الخمسة للنظام المعرفي: المصدر؛ المحتوى؛ العالِم؛ المنهجية؛ والتطبيقات. والجدول يبين بكل وضوح أن النظام المعرفي التوحيدي يستوعب ويتجاوز النظام المعرفي الدنيوي.

الشكل رقم(5)

النظام المعرفي التوحيدي والنظام المعرفي الدنيوي

(دراسة مقارنة)

أركان العلم	النظام المعرفي التوحيدي	النظام المعرفي الدنيوي
المصدر	الله الوحي الكون	– – الكون
المحتوى	*علم الغيب *علم الشهادة: قوانين طبيعية سنن اجتماعية أحكام قيمية أحكام خبرية علم لدنّي	– *علم الشهادة: قوانين طبيعية – – – –
المنهجية	سمع بصر فؤاد قلب	سمع بصر فؤاد –
العالِم	مؤمن	كافر
التطبيق	تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا	تعظيم المتاع من زينة الحياة الدنيا

3- مفهوم مجتمع المعرفة(Knowledge society) في الأدبيات الغربية

تعبير مجتمع المعرفة(Knowledge Society) هو أحد تلك التعابير التي استخدمت لوصف بعض التطورات الأساسية في المجتمعات الصناعية الرأسمالية الغربية بنهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. وهو كمفهوم يتوقع أن يعبر عن الخصائص الأساسية للظاهرة الاجتماعية موضوع الدراسة، ويمكن تلخيص أهم خصائص مجتمع المعرفة كما جاءت في الأدبيات الغربية في القضايا الآتية:

أولا؛ أهم السمات العامة لمجتمع المعرفة:

- التطور في مجال المعلومات تأسيسا على الانتشار الواسع والاستفادة من التكنولوجيا الجديدة في مجال المعلومات(IT)، التي سمحت بقدرات غير مسبوقة في امتلاك ومعالجة وتخزين وتوصيل البيانات والمعلومات.
- الأهمية المتزايدة للابتكار(Innovation) في مجال التكنولوجيا والتنظيم(Organization) كعنصر في المنافسة على مستوى الشركات وعلى المستوى القومي، وكذلك في وضع استراتيجيات لزيادة الفاعلية(Efficiency)، والفعالية(Effectiveness) لكل أنواع المنظمات(Organizations).
- التطور في اقتصاد الخدمات(Service Economy) حيث تركّز معظم النشاط الاقتصادي، والتوظيف(Employment)، وكذلك الانتاج في القطاعات الخدمية للاقتصاد.
- أصبحت إدارة المعرفة(Knowledge Management) قضية جوهرية للمنظمات التي تسعى لتطبيق تقنيات ونظم جديدة للمعلومات(Informaion Systems) تمكنها من تحقيق فعالية أكبر في الاستفادة من مخزون بياناتها(Data)، ومن أصولها المعلوماتية(Information Assets)، وكذلك من خبراتها(Expertise).
- هناك مجموعة من القضايا الأخرى المرتبطة بالسمات الجوهرية لمجتمع المعرفة أعلاه، منها: العولمة؛ التغير في البنيات الديمغرافية؛ الممارسات الثقافية؛ قضايا البيئة.

ثانيا؛ علاقة مجتمع المعرفة بمجتمع المعلومات:

مجتمع المعلومات(Information Society) هو أحد مكونات مجتمع المعرفة، بما أن المعلومات هي أحد مكونات المعرفة. السؤال الذي يطرأ هنا هو الآتي: ما الذي يميز المرحلة الحالية من التطور الاجتماعي في المجتمعات الغربية عما سبقها ما دامت كل المجتمعات البشرية عبر تاريخها ظلت تنتج وتوظف المعرفة، وتنتج كذلك وتعالج أنواعا مختلفة من المعلومات؟

تعددت الإجابات عن هذا السؤال، فهناك إجابة تشير إلى التغييرات الاجتماعية- الاقتصادية التي جعلت عملية معالجة المعلومات نشاطا حيويا وواضحا. وهناك إجابة أخرى تعلي من شأن التغييرات الاجتماعية- التقنية التي صاحبت تكنولوجيا المعلومات الجديدة، والزيادة في قوة، وانخفاض تكلفة، معالجة المعلومات. هذه القدرات الجديدة يمكن تطبيقها في أغلب الأعمال(Works) ، مما يعني أن مجتمع المعلومات ليس هو مجرد مجتمع متخصص في الأعمال المتعلقة بالمعلومات. وحسب هذه الرؤية فإن مجتمع المعلومات هو مرحلة تاريخية في تطور المجتمعات الرأسمالية، يمكن إرجاع تاريخه إلى نهاية السبعينات من القرن الماضي.

إذن مجتمع المعرفة يعتمد على مجتمع المعلومات من حيث أن الأخير هو أحد البُنى التحتية للأول. ولكن هناك مجتمعات معلومات تكتفي فقط بتوظيف التكنولوجيا الجديدة في توزيع(Distribution) منتجات المتاع الدنيوي(Entertainment Products)، أو حتى في مجرد المراقبة (surveillance) السياسية على خصومها بدلا عن توظيفها في خلق مجتمع أكثر وعيا، وديمقراطية أكثر حيوية، وبيئة خلاّقة في مجال الأعمال.

مجتمع المعلومات هو شرط ضروري ولكنه ليس بكاف لقيام مجتمع المعرفة، الذي يحتاج لأكثر من مجرد التوظيف النشط للتكنولوجيا الجديدة.

ثالثا؛ بروز الابتكار التقني:

تعتبر تكنولوجيا المعلومات تكنولوجيا ثورية يمكن تطبيقها في جميع أوجه النشاط الاقتصادي، وبما أن كل أنواع النشاط البشري تقتضي معالجة للمعلومات فإن التكنولوجيا الجديدة تعزز هذه العمليات. كذلك شهد القرن الحالي ظهور تكنولوجيا في مجالات أخرى، وذات استخدامات واسعة، كما أصبح المستهلك في المجتمعات الصناعية يطالب بمنتجات ذات كثافة علمية وتقنية عالية.

هذه التطورات تظهر بوضوح الحاجة المتزايدة إلى الابتكار كعنصر في التنافس على مستوى الشركات وعلى المستوى القومي. تستطيع الشركات من خلال استخدام المعالجات الجديدة تخفيض تكلفة عملياتها، ورفع جودة منتجاتها، كما تستطيع الحصول على أسواق جديدة لمنتجات جديدة. لذلك أصبح الوسع الابتكاري عاملا يفرّق بين الشركات(Firms) والأقاليم(Regions) والنظم(Systems) الناجحة وتلك الفاشلة، ومن ثم أصبح مجتمع المعرفة هو ذلك المجتمع الذي يأتي بقضية الوسع الابتكاري إلى مقدمة أولوياته.

الابتكار ليس أمرا يتعلق بإنتاج المعرفة العلمية فقط، وإنما الابتكار الناجح يقتضي أن تكون المنتجات(Products) والعمليات(Processes) الجديدة مناسبة لبيئتها الاجتماعية، كما يقتضي القدرة على قراءة وتحديد الاتجاهات الاجتماعية والسوقية، وما تتيحه من فرص لتطبيق المعرفة العلمية الجديدة. ذلك أن أعضاء المجتمع المعرفي يتميزون بوعيهم المعلوماتي، وبحرصهم على إسماع صوتهم كمستهلكين، أو كمستخدمين للابتكارات، أو كمواطنين يهمهم الشأن الأخلاقي، والمآلات الاجتماعية والبيئية للتغيرات التقنية.

الاعتراف بمركزية الابتكار في مجتمع المعرفة أدى إلى زيادة الاهتمام بالاستثمار في الابتكار، وكذلك في مجال البحث والتطوير(R&D)، وما يرتبط بها من مناشط مثل خلق قوة عاملة ذات مقدرة على الابتكار، وتقنين حقوق الملكية الفكرية على الابتكار.

رابعا؛ الابتكارات غير التقنية:

الابتكار لا يعتمد فقط على العلوم والتكنولوجيا، بل هناك أهمية بالغة للمعرفة بالسوق، وبما يتطلبه مستخدموا التكنولوجيا. المبتكرون يحتاجون إلى العلم بالقوانين المنظمة، وبكيفية الوصول إلى التمويل، وبالتغيرات التنظيمية، وغيرها كثير. هناك من المبتكرين من يستثمر في محاولة فهم الإطار الاجتماعي للابتكار مستخدمين في ذلك مناهج التنبؤ والمستقبليات، بجانب المناهج التقليدية لأبحاث السوق.

هناك من الابتكارات ما لا يعتمد على العلوم والتكنولوجيا، بل بالقيام بأعمال مبتكرة في مجال الفن والثقافة، والتنظيم الاجتماعي والمهني. هذا النوع من الابتكار له دور مهم في التنبؤ باتجاهات مجتمع المعرفة.

الابتكار في المجال الاجتماعي يأتي كثير منه من المعرفة المكتسبة بالممارسة العملية لا من البحث العلمي المعروف. هذا النمط من الابتكار تعبر عنه محاولة كثير من المنظمات الحكومية، والطوعية، والخيرية، أن تصبح منظمات تعلّمية(Learning Organizations) توظف الآليات(Mechanisms) المعتمدة على الدليل(Evidence-based) لتصميم السياسات وتطبيقها.

خامسا؛ تطور اقتصاد الخدمات(Service Economy) وصلته بمجتمع المعرفة:

يتركز معظم التوظيف في المجتمعات الغربية في قطاع الخدمات، الذي صار مصدرا أساسيا للإنتاج في اقتصاد الدول الرأسمالية الصناعية. إن هيمنة شركات وقطاعات الخدمات يعتبر كافيا ليستحق الاقتصاد نعته بأنه اقتصاد خدمات. وهناك من يرى أن مبدأ الخدمة(Service) أصبح أساسيا في جميع القطاعات الاقتصادية، وأن القيمة المضافة أصبحت تأتي من الخدمة لا من العملية التصنيعية نفسها. وهناك شركات أصبحت تنتج وتبيع الخدمات فقط.

تتزايد الكثافة العلمية(Knowledge-Intensity) في المنتجات في مجتمع المعرفة، كما تتزايد نسبة عمال المعرفة(Knowledge Workers) الذين يقومون بعمليات خدمية فقط في الشركات الانتاجية وغيرها. كذلك فإن الشركات تنفق نسبا متزايدة على شراء مدخلات خدمية من شركات الخدمات قياسا إلى نسبة المواد الخام، ويعتبر هذا مؤشرا مهما في اقتصاد مجتمع المعرفة.

اقتصاد الخدمات في مجتمع المعرفة تتغير فيه العلاقات بين شركات الأعمال والمستهلكين، فهناك تركيز أكبر على العلاقة مع الزبائن، كما يتم الانتقال في الطلب نحو سلع المتاع والتسلية، وكذلك السلع المتعلقة بإكساب المهارات وتطوير الخبرات. هناك تزايد في الطلب على المعرفة المتخصصة، ومن ثم زيادة الطلب على الخبراء من عمال المعرفة. هناك أيضا تغير في طبيعة العمل إذ تتراجع نسبة العمال غير المهرة لصالح المهنيين وأصحاب الياقات البيضاء. يجري التغيير أيضا في نمط الحياة حيث الاعتماد المتزايد على خدمات السوق في الوفاء بما كانت تقوم به الأسرة بنفسها في البيت.

سادسا؛ مفهوم المعرفة(Knowledge) في مجتمع المعرفة:

ظل الجدل محتدما عبر تاريخ الحضارة الغربية حول ماهية المعرفة، لكن الأدبيات المعنية بمجتمع المعرفة تميل في غالبها إلى نظرية العالم الهنغاري مايكل بوليني(Michael Polanyi) الذي يميز بين نوعين من المعرفة؛ المعرفة الضمنية(Tacit Knowledge)، والمعرفة المقننة(Codified Knowledge). المعرفة الضمنية هي تلك التي يكتسبها الناس من خلال خبراتهم العملية طيلة حياتهم، وهي ذاتية يوظفها الناس في تصريف شؤون حياتهم، والمثال الشائع لهذا النوع من المعرفة هو ركوب الدراجة. المعرفة المقننة هي المعرفة العلمية التي يتم الحصول عليها عن طريق البحث العلمي المنظم، ويتم نشرها وحفظها في الوسائط المعلوماتية المختلفة من كتب ودوريات وحتى الإنترنت.

المعرفة الضمنية مفهوم فضفاض قد يعني حصيلة الجمع بين المعلومات الخبرات الشخصية، وكذلك القيم والقدرة على تقدير الأمور والحكم عليها. المعرفة الضمنية لا حدود لها، وتتمتع بالديناميكية، ولأنها ذاتية يصعب تشاركها مع الآخرين، أو نقلها إليهم. إذا شبهنا النوعين من المعرفة في تكاملهما بجبل الجليد، الذي يظهر أعلاه بينما يظل معظمه تحت الماء، فإن المعرفة الضمنية تمثل ما خفي من جبل الجليد، بينما المعرفة المنظمة تمثل أعلاه.

الكثير من مجتمعات المعرفة المعاصرة تظهر فيها الدلائل على النمو المتسارع والمتسع لموارد المعلومات، كما يتم إنتاج هذه المعلومات بكميات متزايدة، ويتم توزيعها وبثها بتوسع لم يسبق له مثيل. يتم إنجاز كل ذلك ببذل الوسع في مجال البحث العلمي، وتوثيق نتائجه وتوظيفها في المجالات التطبيقية المختلفة، وكذلك من خلال التزايد في أعداد الذين يبتغون تدريبا علميا متقدما، ويتأهلون على المستوى العلمي والمهني.

سابعا؛ الجوانب الأخرى من التغيير الاجتماعي:

تعتبر عولمة الاقتصاد من مظاهر مجتمع المعرفة أسهمت فيه تكنولوجيا المعلومات، وبدوره يقوم الاقتصاد المعولم بحفز المنافسة المؤسسة على الابتكار. يقتضي ذلك معرفة أكبر بالثقافات والنظم القانونية في الدول المختلفة، مما يتيح التعلم من خبراتها.

هناك تغيرات اجتماعية أخرى ذات ارتباط وثيق بظهور مجتمع المعرفة، مثال ذلك التغيرات الديمغرافية ذات الأثر البعيد على التعليم والعمل وأنماط الاستهلاك في الدول الغربية التي يشيخ سكانها. هناك أيضا قضية التغيرات المناخية المتسارعة، وهي منسوبة إلى نمط الحياة المعاصرة، وتخلق إحساسا اجتماعيا بالخطر وعدم اليقين في المستقبل. العلماء يؤكدون جسامة التغيير الذي يجري في المناخ، وأهمية تأقلم مجتمعات المعرفة مع الأمر في المستقبل، وما يقتضيه ذلك من تغييرات اجتماعية.

ثامنا؛ علاقة مجتمع المعرفة بالتغيير الاجتماعي:

تنتشر تكنولوجيا المعلومات الجديدة في كل مجالات الأعمال والحياة اليومية للناس، داخل وخارج المنزل، وتتيح قدرات جديدة لرجال الأعمال ولعامة الناس، وكل يستخدمها بالطريقة التي تحقق أهدافه. ويبتكر الناس استخدامات جديدة لهذه التقنية باستمرار لتحسين أنماط حياتهم وأعمالهم. يتوقع أن يؤدي ذلك إلى تغييرات كبيرة في نمط الحياة، إلا أن هذه التغييرات لا ينبغي أن تنسب إلى تكنولوجيا المعلومات ذاتها، ولكن إلى خيارات الناس في توظيف هذه التكنولوجيا الجديدة، وما تتيحه من قدرات.

تاسعا؛ الدلالات على ظروف العمل:

أدى نمو قطاع الخدمات المؤسس على التكنولوجيا الجديدة إلى ارتفاع الطلب على أصحاب المهارات العالية، وفي ذات الوقت أدى تراجع قطاع الخدمات المؤسس على أساليب الإدارة القديمة والعمالة غير المؤهلة إلى تراجع الطلب على هذا النوع من العمالة. كذلك أدى الابتكار في مجال التنظيم في شركات العمل إلى استخدام نظم جديدة في العمل تسمح بمرونة في أداء العاملين لأعمالهم، بما في ذلك العمل عن بعد.

برزت إلى السطح، بسبب استخدامات التكنولوجيا الجديدة قضايا عديدة، منها:

- قضايا الصحة والسلامة في العمل المرتبطة بالانبعاثات الكيميائية والاشعاعية التي تتصف بها بعض الأجهزة الجديدة. هناك أيضا إصابات العمل التي تنجم عن الإرهاق المستمر.
- هناك ضغوط العمل التي قد تأتي من المسؤوليات الجديدة، أو من كثافة العمل، أو من تحديات التكيف مع تكنولوجيا وممارسات عمل تتغير باستمرار.
- هناك القضايا المتعلقة بالخصوصية والمراقبة والحريات المدنية، فقد أتاحت التكنولوجيا الجديدة أنماطا جديدة للاتصال مما اقتضى أن تطالب المنظمات بوضع ضوابط مناسبة تحكم محتوى البريد الإلكتروني، الدخول إلى الإنترنت،

خصوصية المعلومات...إلخ. وقد أدى تزايد القدرة على مراقبة سلوك وأداء العاملين إلى التخوّف من التضييق الإداري على يوم العمل وطريقة تنظيمه.

- الممارسات الجديدة في العمل قد تفرض شروطا تؤدي إلى ضغوط ليس فقط على العاملين، بل على أسرهم أيضا. العمل المتنقل، مثلا، قد يؤدي إلى التباعد بين أفراد الأسرة، بينما العمل من المنزل قد يؤدي إلى الشجار بينهم حول استخدام المتاح من مساحة العمل في المنزل. هناك أيضا احتمال الاضطراب في العلاقات الاجتماعية للعامل في مكان العمل، وهي علاقات كانت تتمتع بها بيئات العمل التقليدية.

عاشرا؛ أثر مجتمع المعرفة على العلاقات الصناعية:

يمكن رصد التغيرات الآتية:

- تغير في تركيبة القوى العاملة، وقد تمثل ذلك في نمو العمل المهني؛ تراجع العمل اليدوي التقليدي؛ انتظام المهنيين في روابط مهنية بدلا عن الاتحادات العمالية.
- التغيير في مكان العمل، حيث تراجع حجم المنشأة، مما قلل من احتمال احتشاد عدد كبير من العاملين في مكان واحد، وهذا يؤثر على التكوينات النقابية للعمال، وعلى عقد اجتماعاتهم.
- التغيير في أشكال العمل، ومن ضمن ذلك العمل المتنقل والعمل من المنزل، مما يضعف إمكان التواصل وجها لوجه، فيما بين العمال من جهة، وفيما بينهم وبين أصحاب الأعمال من جهة أخرى.
- التغييرات التعاقدية، إذ أصبحت عمليات التعهد الخارجي(Outsourcing) تمكن بعضا ممن كان يعمل في شركة ما أن يقوم بذات العمل لذات الشركة كمتعهد خاص.
- هناك المجالات الجديدة للتفاوض بين أرباب العمل والعاملين؛ فبينما كان التفاوض في ثمانينات القرن الماضي يدور حول التكنولوجيا الجديدة، انتقل التفاوض في التسعينات إلى قضايا المرونة المتعلقة بترتيبات العمل ومسؤولياته.

الآن في مطلع القرن الجديد يتم التفاوض حول خصوصية البريد الإلكتروني، ملكية الأصول الفكرية التي تنتج أثناء العمل، وكيفية إقامة الوزن بالقسط بين العمل وبرنامج التعلم مدى الحياة.

- استخدام تكنولوجيا المعلومات الجديدة من قبل المديرين والموظفين والنقابات وغيرهم من أصحاب المصلحة للتواصل والنقاش حول القضايا المهمة المشتركة، وذلك من أجل تحديد مواقفهم، والتعبير عن هواجسهم، والاشتراك في صياغة القرار والفعل المناسبز
- هناك تأثير كبير على الأحوال المعيشية للناس، وعلى نمط حياتهم، بسبب التغييرات التي تتم على المستوى التقني والتنظيمي، سواء تم توظيف هذه التقنيات لأغراض العمل، أو كسلع استهلاكية. بعض أوجه هذا التغيير في نمط الحياة يتجلى في الآتي:

– هناك تنامي الضغوط المتعلقة بالزمن في حياة الناس اليومية، وفي العمل، سواء بسبب عين الموبايل التي لا تنام، أو بسبب كثرة البرامج الترفيهية التي تتنافس على وقت الفراغ.

– هناك إشكالات الخصوصية والسطو على البيانات والمعلومات الخاصة بالأشخاص، سواء من قبل السلطات العامة، أو من قبل أشخاص متطفلين. هناك أيضا التزايد المستمر لعمليات المراقبة التي تتم من خلال كاميرات المراقبة المزروعة في كل مكان.

– هناك التفتت الاجتماعي حيث تمكّن التكنولوجيا الجديدة من تكوين ثقافات فرعية منغلقة على نفسها قد تتطور إلى أجسام معادية للمجتمع. تغري التكنولوجيا الجديدة الأفراد بالانشغال بالتواصل السايبيري، والانقطاع عن التواصل الاجتماعي المباشر، الذي له أهمية قصوى في تماسك المجتمع. ثم هناك الحكومة الإلكترونية وأثرها على حياة الناس، وكذلك الأثر المتوقع على مجتمع المعرفة الذي سوف يحدثه الوعي المعلوماتي المتزايد للمواطن.

- تمثل مشاكل عدم العدالة المعلوماتية، والفجوة الرقمية التي تطال المستضعفين من الفقراء، وكبار السن، وبعض المجموعات الإثنية، ومن هو بعيد عن المراكز

الحضرية، إفرازات مقلقة لمجتمع المعرفة. إن الابتكار المستمر يعني أن تكون دائما هناك منتجات تقنية جديدة، وقد تحدث فرقا في حياة الناس على المستوى التعليمي والصحي، وعلى مستوى معيشتهم، مما يعني أن المستضعفين سوف يكونون دائما من أولي الضرر التقني والمعلوماتي.

4- مفهوم مجتمع المعرفة تحت المجهر القرآني

نستجمع في هذا القسم الأخير من البحث ما سبق عرضه من قضايا في الأقسام السابقة، ونوظفه، من ثم، في دراسة نقدية مختصرة للمفهوم الإنجليزي(Knowledge Society)، ثم للترجمة العربية له(مجتمع المعرفة)، ونقدم مصطلحا بديلا مشتقا من القرآن الكريم، نحسب أنه أصلح في دلالته المفاهيمية للتعبير عن الظاهرة الاجتماعية الرأسمالية موضوع البحث. ونحن إذ نفعل ذلك نؤكد أهمية أن يطور المسلمون مفاهيم ونظريات علمية في مجال الاجتماع الإنساني تنبع من الوحي الكريم، وهي بحكم مصدرها أقدر على تفسير التمظهرات الاجتماعية التاريخية، سواء كانت في المجتمعات الغربية، أو العربية وغيرها. ولكن قبل ذلك نستخلص مسلّمة من القسمين الأول والثاني أعلاه، يتم توظيفها لاحقا، ونثبتها على النحو التالي:

خلق الله السماوات والأرض بالحق، وسخّر ما فيهما من منافع للإنسان، فلا سبيل له لتحصيل تلك المنافع إلا تأسيسا على الحق الذي قامت به، وسبيله إلى ذلك العلم المناسب لا غير.

أولا؛ نلاحظ الانتقائية التي تم بها اختيار الظواهر الاجتماعية التي جرى وصفها في المجتمعات الغربية الرأسمالية باعتبارها تعبر عن أهم خصائص تلك المجتمعات حاليا، وتم التعبير عنها بمفهوم (Knowledge Societies). ربما تكون هذه السمات المنتقاة هي فعلا ما يهم أصحاب تلك المجتمعات، أو ربما تكون النظريات الاجتماعية المتاحة، وأدواتها التحليلية المستخدمة لا تسمح إلا باختيار ما تم اختياره من ظواهر، ولكنّا نرى رأي العين، بما تحمله لنا

تكنولوجيا المعلومات والاتصال الجديدة، أن هناك ظواهر وسمات اجتماعية في تلك المجتمعات هي أخطر وأهم كثيرا للبشرية عموما مما تم التركيز عليه، والترويج له.

ولكي نسلّط الضوء المنهجي على تلك الظواهر التي لم تظهر من خلال الأدبيات الغربية، سوف نستعين بإطارنا النظري الذي تم استنباطه من القرآن الكريم في القسم الأول، وبالتحديد نظام الاجتماع الدنيوي، الذي قلنا إن الرأسمالية الغربية هي التمظهر التاريخي الأتم له، حتى الآن. نظام الاجتماع الدنيوي ينشأ من التفاعل الدائم بين خمسة متغيرات هي: المتاع الدنيوي؛ النفس الفاجرة؛ الهوى؛ المال؛ البنون، ويتمظهر تاريخيا بشروط الزمان والمكان. ويحيط بهذا التفاعل ويتداخل معه الفعل الإلهي، "المهيمن" و"المصدّق"، من خلال ما أسميناه "سنن الاجتماع الإنساني"، التي لا تتحول ولا تتبدل. وقد عرّفنا السنّة بأنها:

" كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد أو الجماعة فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له، لينتهي به، بأسباب طبيعية أو اجتماعية أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى، قد تكون مطابقة، أو مخالفة لما قصده الفرد، أو الجماعة من الفعل. وقد يخص تأثيرها الفرد، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون غير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي".

من السنن الاجتماعية الحتمية التي تحكم نظام الاجتماع الدنيوي، مما أثبته القرآن الكريم، السنن الآتية:

1- **سنة العذاب:** (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾)(التوبة)؛

2- **سنة الاستدراج:** (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾)(المؤمنون)؛

3- سنة القرين الشيطاني: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾)(الزخرف)؛

4- سنة المعيشة الضنكة: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾)(طه)؛

5- سنة المحق: (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾)(البقرة)؛

6- سنة المد في الضلال: (قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ... ﴿٧٥﴾)(مريم).

سوف نتتبع الآن جميع المتغيرات الخمسة(المتاع الدنيوي، النفس الفاجرة، الهوى، المال، البنون) في تفاعلها، وفي تمظهرات هذا التفاعل في المجتمعات الغربية الحالية، لنسلط الضوء على ما لم يظهر من ظواهر في أدبيات مجتمع المعرفة. أول تلك الظواهر هو أن المجتمعات الغربية لم تعد تبحث عن الحق الذي قامت به السموات والأرض، وإنما تبحث عن تعظيم المتاع الدنيوي الثاوي في زينتها(المال، البنون)، وأصبح هذا البحث المحموم هو الماكينة المحركة للتنمية والنمو في تلك المجتمعات. ولم يأت هذا اعتباطا بل تولّد عن خيارات فكرية ممتدة عبر القرون في أوربا، وثورات وتغييرات اجتماعية هائلة انتصرت لهذا الخيار الدنيوي، الذي يقال إنه الآن في مرحلة ما بعد الحداثة. وهذا البحث المحموم عن المتاع الدنيوي هو الذي فجّر كوامن العلم المادي وتطبيقاته، وتمظهراته حتى فيما يسمى بمجتمع المعرفة، مما حدى ببعض المستبصرين فيه إلى نعته بمجتمع المتاع(Entertainment Society).

وبالرجوع إلى إطارنا النظري نجد أن النظام المعرفي في نظام الاجتماع الدنيوي، وقد استبعد الوحي من مصادره المعرفية، لا يتيح إلا علما ظنيا في مجال الظاهرة الطبيعية، الخاضعة للمدركات الحسية للإنسان، عبر المنهج العلمي التجريبي المعروف. لذلك برزت اللذة الحسية الدنيوية في "المال"(المأكل، المشرب، الملبس، المسكن، المركب)، واللذة الحسية الدنيوية في "البنون"(الجنس، الذرية)، كأبرز ظاهرة مادية محسوسة تكيّف ظاهرة الاجتماع الإنساني، ويمكن دراستها عن طريق المنهج التجريبي. وأصبح الإنسان هو مركز الكون، ومرجعية نفسه في كل شأنه. لذلك كان دور العلوم الطبيعية في الحضارة الأوربية دورا وظيفيا بحتا، لا يتجاوز ظاهرا من الحياة الدنيا، من أجل تعظيم متاعها، أما الدور الأهم لهذه العلوم، وهو العلم بالله تعالى من خلال العلم بخلقه، ومن ثم القيام بحقه في مملكته، فليس مما تستطيعه هذه العلوم في إطار نظام الاجتماع الدنيوي الذي أنتجها.

أما في مجال الاجتماع الإنساني فلا يستطيع النظام المعرفي الدنيوي، وقد تم استبعاد الوحي، أن ينتج أي علوم تهدي الإنسان إلى الحق الذي يتأسس عليه هذا الاجتماع، وذلك

لخصوصية هذا الاجتماع الإنساني، الذي تعبر عنه "خطة الخلق العامة" التي فصّلناها في القسم الأول من هذا البحث. لذلك نجد أن من الظواهر البارزة في المجتمعات الغربية اليوم هو فقدانها للبوصلة الموجهة، وحالة الشقاء والسيولة الاجتماعية التي تعيشها في كل شيئ، وتوهان هذه المجتمعات وأفرادها، كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران. ولعل ذلك يؤشر إلى تحقق بعض السنن الإلهية أعلاه، فقد جاء في تفسير ابن كثير عن معنى "المعيشة الضنكة" ما يلي:

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي} أَيْ: خَالَفَ أَمْرِي، وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} أَيْ: فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ، وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ [ضَيِّقٌ] (1) حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قلبه مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى، فَهُوَ فِي قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَتَرَدَّدُ. فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} قَالَ: الشَّقَاءُ.

الهوى(تعلّق النفس بالمتاع الدنيوي في هذا البحث) الذي يُنصّب إلاها في نظام الاجتماع الدنيوي، يتمظهر في مجتمعات المعرفة من خلال الظواهر الاجتماعية في مجالات "النفس"، "المال"، و"البنون". تنقل إلينا تكنولوجيا المعلومات والاتصال، بلا انقطاع، التصدعات والأزمات والأمراض النفسية العميقة التي تعاني منها النفس البشرية في المجتمعات الغربية، وميلها إلى الإلحاد، والقسوة، والعدوان، واستحكام الفجور فيها بسبب انغماسها في الشهوات، ومكر الليل والنهار من شياطين الإنس بتغذية هذه الشهوات، عبر التكنولوجيا الجديدة للمعلومات والاتصال(مطلوب شواهد موثقة علميا).

"المال" و"البنون" شهوتان يغذّي بعضهما بعضا، وحولهما يدور كل شيئ في مجتمع المعرفة الدنيوي. من الظواهر المقلقة في مجتمعات المعرفة تحويل كل شيئ إلى سلعة تباع وتشترى من أجل المال، فالهواء النقي أصبح سلعة ولها ثمن، والبشر أصبحوا سلعة؛ فهناك تجارة الجنس، وهناك تجارة في النساء، وهناك تجارة في الأطفال، وهناك تجارة في الأعضاء البشرية، وهناك تجارة في معاناة الناس ممن يرغبون في الهجرة إلى مجتمعات المعرفة الغربية. وهناك ظاهرة الاقتصاد الزبدي المؤسس على الغرر، وأكل أموال الناس بالباطل، وتستغل في ذلك التكنولوجيا الجديدة للمعلومات والاتصال. هناك أيضا ظاهرة التركيز الشديد للثروة في أيدي قلة محدودة من مالكي الشركات العالمية الكبرى العابرة، تقدر بما لا يزيد عن 20% من سكان الأرض.

متغير "البنين" يتميز بشهوتين متمايزتين أولاهما وأقواهما شهوة الجنس الفطري بين الرجل والمرأة، ثم شهوة الذرية في إطار الأسرة. من أبرز التمظهرات الاجتماعية في هذا المجال، في مجتمعات المعرفة الأوربية، إقامة العلاقات الجنسية بلا ضابط، وفي كل مكان، وتغذية ذلك من خلال جعل الرسالة الجنسية محتوى أساسيا للتكنولوجيا الجديدة. أدى ذلك إلى بروز المزيد من الظواهر السالبة، بجانب التصدعات النفسية، منها تصدع العلاقات الزوجية الشرعية، تفشي العنف الأسري، إعطاء الشرعية الاجتماعية والقانونية للشذوذ الجنسي، تمييع مفهوم الأسرة لتتساوى الأسرة الشرعية مع الأسرة المثلية، التفكك الأسري وضياع الأطفال، الفصل بين العلاقة الجنسية وموجبها من الذرية، وما تمخض عنه من عزوف عن الإنجاب، ومن ثم التغيّر في التركيبة الديمغرافية للسكان.

على مستوى المجتمع ككل نجد أن الظاهرة الأبرز في مجتمعات المعرفة الغربية تقنين الأهواء الاجتماعية في شكل حقوق إنسان، أو اتفاقيات وقوانين دولية، وتسويقها عبر المؤسسات الأممية، الدولية والإقليمية، بالترغيب أو بالترهيب، لتصبح ملزمة لكل مجتمعات الأرض.

ثانيا: إذا أضفنا الخصائص السالبة أعلاه إلى الخصائص الموجبة لمجتمعات المعرفة، مما ذكرته في القسم الثالث لهذا البحث، ومما ذكره غيري، فهل يعبر المفهوم الإنجليزي(Knowledge Society) عن حقيقة هذه المجتمعات؟

للإجابة عن هذا السؤال نرجع إلى المسلّمة التي ذكرتها في أول هذا القسم، والتي تفيد بأن المنافع الدنيوية التي خلقها الله تعالى بالحق، لا يمكن تحصيلها من قبل الإنسان إلا بالعلم المناسب المفضي إلى الحق الحامل لكل منفعة، فالدرّاجة، مثلا، لا يمكن صنعها إلا بالعلم الذي جعله الله تعالى سبيلا إلى ذلك، ولا يمكن ركوبها بعد صنعها إلا بالعلم المناسب، الذي جعله الله تعالى سبيلا إلى ركوبها، وقد قال تعالى: (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾)(الصافات). وبالرجوع إلى الخواص التي جعلت مجتمعات بعينها تستحق أن يطلق عليها مجتمعات معرفة، نجد أنها تعود إلى التطور في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها العملية، لاسيما التقنية منها. والعلوم الطبيعية تستوفي شرط العلم، ومن ثم فهي سبيل مناسب للوصول إلى التقنية التي ظل الإنسان ينتجها على الدوام، القديم منها والجديد.

الكلمة الإنجليزية (Knowledge)، بحسب تعريفها عند أهل الاختصاص الغربيين تسع ما هو علم، وما ليس هو بعلم من المعتقدات والقيم والخبرات الشخصية(Tacit Knowledge). لذلك نقول إنه إن قصد من هذه اللفظة أن تعبّر دلالاتها المفهومية عن الحق الذي في العلوم

الطبيعية، ومنجزاتها التطبيقية في المجتمعات الغربية، فهي قطعا غير مناسبة لذلك، وأوْلى منها كلمة (Science). وأما إن قصد من خلالها الترويج للنظام الاجتماعي الغربي المعاصر، بحقه وباطله، فيجب علينا الحذر فيما نأخذ وما نذر. ولكن إن أخذنا الصورة الكلية لمجتمع المعرفة بظواهره الموجبة والسالبة التي ذكرناها أعلاه، فلا أعتقد أن المفهوم يسع المجتمع بكل تلك الظواهر.

ثالثا؛ ماذا عن استخدام المصطلح العربي (مجتمع المعرفة)، ودلالاته المفهومية، لوصف الظواهر الاجتماعية التي يفترض أن يعبّر عنها المصطلح الإنجليزي (Knowledge society)، في ضوء نظرية المعرفة التي اشتققناها من القرآن الكريم؟

لقد تبين لنا من توظيف القرآن الكريم للفعل "عرف"، بماضيه ومضارعه، وعدم ذكره قط للاسم "معرفة"، أو للصفة "عارف"، مع ذكره الكثيف لكل تصريفات الفعل "علم"، لا سيما الاسم "عِلْم"، والصفات أيضا "عالم" و"علام" و"عليم"، أن المعرفة ليست جوهرا، بل هي العملية الأساسية للفعل والاتصال الاجتماعي، التي تلزم كل فرد وكل مجتمع، بحيث أنها إذا توقفت توقف الفعل الاجتماعي وزال المجتمع، ولم يعد الإنسان إنسانا.

إذن العملية المعرفية لا يمكن أن تعطي خصوصية لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، كما لا يمكن توظيفها لوصف مرحلة تاريخية بعينها من مراحل التاريخ الإنساني. ولكن الذي يعطي الخصوصية، ويمكن توظيفه لوصف المراحل التاريخية للاجتماع الإنساني، هو نوع العلم ومقدار كثافة واتساع توظيفه في العملية المعرفية في المرحلة التاريخية المعينة.

رابعا؛ إذا كان المصطلح الإنجليزي، وكذلك نظيره العربي، بمضامينهما المفاهيمية، لا يصلحان، فيما يبدو، للتعبير عن الخصائص الاجتماعية التي تتصف بها المجتمعات الصناعية المعاصرة، هل يمكن أن نصك مصطلحا مناسبا مشتقا من "رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني"، التي بسطناها في أول هذا البحث؟

أرى أن المصطلح المناسب، الذي تعبّر مضامينه المعرفية تماما عن موضوع بحثنا، هو: "**مجتمع العلم بظاهر من الحياة الدنيا**"، ونميزه بذلك عن مصطلح "**مجتمع العلم**"، حيث العلم هو الخاصية الدائمة، والملازمة أبدا، لنظام الاجتماع التوحيدي. والعلم مطلقا في نظام الاجتماع التوحيدي، هو ذلك الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، ويشمل كل أنواع العلم التي تحقق هذا الوصف، مما ذكرناه في متن هذا البحث.

يجب أن تسعى المجتمعات العربية والإسلامية إلى بناء "مجتمع العلم"، تأسيسا على رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، بشروط الزمان والمكان، وفي هذا الإطار يستفاد من الحق الذي اهتدت إليه البشرية اليوم، سواء في ما يسمى بمجتمعات المعرفة، أو في غيرها من المجتمعات.

تم بحمد الله وتوفيقه

مراجع البحث

المراجع العربية:

1- القرآن الكريم
2- المكتبة الإلكترونية الشاملة
3- محمد بابكر العوض(2012). الطريق إلى مجتمع المعرفة. هيئة الأعمال الفكرية(الخرطوم- السودان).
4- محمد الحسن بريمة إبراهيم(2014). العلم والمعرفة بين نموذجين: الظاهرة السببئية حالة تفسيرية. معهد إسلام المعرفة(واد مدني- السودان)؛ مرفوع في موقع (biraima.net).
5- محمد الحسن بريمة إبراهيم(2014). نحو ثورات ثلاث. (Biraima.net).

المراجع الإنجليزية:

1- Arab Knowledge Report(2009): Introduction.

2- Evers, H.(2004). Transition Towards a Knowledge Society: Malaysia and Andonesia compaired. University of Bonn, Germany/EU.

3- Hornidge,A.(2010). 'Knowledge Society' as academic concep and stage of development, in "Beyond the Knowledge Trap: developing Asia's Knowledge- Based Economy". World Scientific co. Pte. Ltd.

4- Europian Foundation for the Improvement of Living and Working conditions(2003). Handbook of Knowledge Society Foresight.

5- Mokyr, J.(2002). The Knowledge society: Theoretical and Historical Underpinnings. Paper presented to the Ad Hoc Expert Group on Knowledge Systems, UN.

6- Qvortrup, L.(2006). The Concept of 'Knowledge' in the Knowledge Society and religion as 4th Order Knowledge. ISA Conference, Sociocybernetic section, Durban.

7- Maktoum Foundation(2010/2011), UN DP. Arab Knowledge Report: Introduction.

8- UNESCO(2005). Towards Knowledge Societies. UNESCO Publishing.

9- UN Department of Economic and Social Affairs(2005). Understanding Knowledge Societies.